العد التنازلي

٣١ آيار (مايو) إلى ٤ حزيران (يونيو)

كان موقف الحسين غير قابل للدفاع عنه أبداً، إذ يهاجمه الراديكاليون العرب ولا يستطيع الاستعانة بالمعتدلين منهم، وكان يواجه أزمة يبدو أن لكل طرف فيها حليف قوي يدعمه. إلا الأردن فقد وقف وحيداً، فإن نشبت الحرب، فلربما تكلفه مملكته، وتاجه، وليس بعيداً، حياته.

كان الحسين، منذ حادثة السمّوع، يسعى جاهداً لتجنُّب صدمات أخرى. وكان يتبادل سراً المعلومات الاستخبارية مع تل أبيب حول إرهابيي الضفة الغربية المشتبه بهم. وكان يأمل أن يركز غضب إسرائيل على دمشق، ومع ذلك عندما تم تداول تقارير حول غزو إسرائيلي وشيك على سورية، لم يصدقها الملك. إذ إن محطة الرادار الأردنية القوية في جبل عجلون لم تلتقط أية إشارة لأي حشد لجيش الدفاع الإسرائيلي في الشمال. ومع ذلك طلب إشكول من الأردن أن تكف عن تبجيل عبد الناصر بوصفه «الزعيم العربي الوحيد... كي يعيش بسلام مع إسرائيل» فوافق الحسين على الفور. فقد رأى أن الوضع يخرج عن السيطرة بسرعة. إذ لم تكن الضفة الغربية وحدها فقط، بل الضفة الشرقية أيضاً، تفور هائجة بامتداح عبد الناصر والدعوة إلى إزالة إسرائيل. (١)

شكى وزير الخارجية أحمد طوقان إلى السفير بيرنز (Burns) قائلاً: «تستطيع إسرائيل مهاجمة الأردن دون أن تعاقب، مُقَدّراً أن سوريا لن تنجد الأردن. «ولكن الأردن الآن يواجه خطراً محتملاً أكبر: ألا وهو قيام مصر بتوجيه الضربة

الأولى. فإذا ما صُدَّ العدوان، سيجعل عبد الناصر من الأردن كبش فداء. وربما يتمرد الفلسطينيون، وربما يتمرد الجيش كذلك ويطيحون بالحكومة ويضعون منظمة التحرير الفلسطينية مكانها. ومن ناحية أخرى، إذا ما نجحت مصر فإن قواتها ستقطع النقب وتتابع سيرها نحو عمَّان. والواقع أن الحسين كان مقتنعاً بأن قصف الرمثة في ٢١ مايو كان خدعة لجر الجيش الأردني إلى الحدود السورية تاركاً الضفة الغربية مكشوفة. والخاسر في أي من الاحتمالين هو الأردن. كانت الورطة كما وصفها زيد الرفاعي أحد الموثوقين لدى الملك، مربكة للعقل: «حتى وإن لم تشارك الأردن في الحرب مباشرة... فسوف يقع اللوم عليها في خسارة الحرب، ثم يأتي دورنا بعد ذلك. وإذا ما عزلنا عن التيار الرئيسي للسياسة العربية، فسوف نكون هدفاً سهلاً». (٢)

كان تحدي الحسين هو الإبحار عبر السيلّة* المصرية والشاريبديس الإسرائيلية (وتعني العبارة أن التحدي الذي يواجه الحسين هو اختبار أحد أمرين أحلاهما مر)، بيد أن آفاق النجاح كانت ضئيلة. فقد ناشد الولايات المتحدة مراراً أو تكراراً لتصدر بياناً واضحاً يؤكد سلامة الأراضي الأردنية في حالة نشوب حرب، ولكن عبثاً. وطلب من القاهرة إحياء بنود معاهدة الدفاع المشترك للقيادة العربية الموحدة، ولكن دون جدوى. فالأمريكيون أعادوا تأكيدهم بالتزامهم باستقلال الأردن، ولكن لدى الرجوع إلى الكونغرس رفض ضمان ذلك علناً. وفي مصر، قيل للجنرال عامر خماش، رئيس هيئة الأركان الأردنية، إن القيادة العربية المشتركة قد قامت، وإن على الأردن أن يهتم بالدفاع عن نفسه وأن لا «يخلق إشكالات للآخرين. حتى السعودية والعراق اللتان تطوعتا ذات يوم لمساعدة الأردن في الدفاع عن نفسه، قد تراجعتا الآن عن هذا الموعد، وعرضتا المساعدة على سورية بدلاً من ذلك.

وكان رد الحسين الوحيد هو أن ينأى بنفسه عن الحرب بين سوريا وإسرائيل، أما إذا تورطت مصر فيها فإنه يشارك رمزياً وبصورة غير مباشرة بإرسال بضعة أفواج إلى سيناء. وفي كلا الحالتين، سوف تسعى إسرائيل للانتقام من الأردن - أو هكذا قال الملك في اجتماع طارئ ضم الوزراء وهيئة الأركان في ٢٢ مايو. ولاحظ برنز

(Burnz) أن الحسين كان مهيّأً لكسب شعبية عن طريق التظاهر بأنه سيقوم بعمل باهر، وأنه سوف يتصرف كشمشون (Samson) في الهيكل... مجازفاً بإبادة شعبية على يد الإسرائيلين بدلاً من أن يبادر بتمرد داخلي.» (٣) ارتدى الحسين فيما بعد من ذلك اليوم بزة عسكرية واستعرض لواءين مدرعين، اللواء الأربعين واللواء الستين، في شوارع عمان. وكانت غايته إظهار القوة أملاً في ألا يستخدمها. ولكنه حرم من ذلك بفضل قرار ناصر بشأن تيران.

قال الحسين: «لقد صعقت، لاتخاذ مثل هذا الإجراء الذي يفتقر إلى العقل والدراسة اللازمة، إذ سيقود إلى كارثة، لأن العرب لم يكونوا مستعدين للحرب. لم يكن هناك تنسيق، ولا تعاون، ولا خطة مشتركة فيما بينهم.» وشكا إلى دبلومسيين غربيين «أن ناصر يتصرف كالمجنون، غير مدرك للمخاطر البالغة التي ستنجم عن هذه الخطوة ويلعب بدعم سوفياتي لم يعلن عنه أبداً.» لم تمنع حدة هذه التحفظات الناطق باسمه أن يمتدح الحصار ويعد بدعم مطلق لهذا الحصار. لم يعد بالإمكان الاحتجاج على عودة شحنة من الذخيرة الحية إلى الجيش الأردني أقلتها (Uss Green Island) قبل أن تصل المضائق. إذ خشي أصحاب السفينة أن تكون المياه ملغّمة.

كان الحسين غاضباً من عبد الناصر، ويشعر بالمرارة تجاه البيت الأبيض، الذي كان يديره الصهيونيان الأخوان روستو، حسب ادعائه، ومحكوماً بخطة ريفاتا (سباق الزوارق) التي كانت بنظره خدعة لتعزيز إسرائيل. وحذر بيرنز قائلاً: «أهداف ناصر ليست حرباً عسكرية مع إسرائيل، بل هي حرب سياسية مع الولايات المتحدة.» واقترح عليه أن يرفع الرئيس الأمريكي يده ويدع إسرائيل تهاجم تيران حتى يستطيع فيما بعد التدخل كصانع سلام. وأردف قائلاً: «إنه مما يرثى له أن تضحي الولايات المتحدة بأصدقائها العرب، وتأثيرها العالمي الحر في الشرق الأوسط مقابل الحيلولة دون فرض قيود على حقوق الملاحة الإسرائيلية».

ومع ذلك، بما أن واشنطن متمسكة بما يسميه العرب الخط المؤيد لإسرائيل، وأن مصر ظلت في قبضة سوريا تتجه بسرعة نحو الحرب، لم يبق أمام الحسين خيار سوى رص الصفوف مع ناصر. وكان عليه أن يقنع العرب بأنه ليس دمية في يد الغرب، بل هو لشعبه - الذي كان الفلسطينيون يشكلون ثلثه حسب تقديراته هو، وأنه راغب في الدفاع عن وطنهم. وتنبأ بيرنز بأنه «ليس غريباً أن تتخذ الحكومة الأردنية قراراً ببعض التحركات في الأسابيع المقبلة للتقليل من تعرضه إلى الخطر، كما يرى النظام.» ورأى أنه ربما يُسمح للقوات السعودية والعراقية بدخول الأراضي الأردنية. (٤)

والواقع أن الحسين قد شرع في اتخاذ هذه الخطوات، ولم يضع الوقت. إذ أمر اللواء الأربعين ودباباته المئة بعبور نهر الأردن قرب أريحا، منتهكا بذلك القيود التي فرضتها أمريكا على انتشار قواته. ثم، أبعد وصفي التل، رئيس الديوان الملكي، عن بقعة الضوء إرضاء لعبد الناصر. وأسرَّ طوقان إلى بيرنز قائلاً: «سنراقبه كصاروخ هوك ونجلس عليه عندما يدخل في مداره». وفي هذه الأثناء، أرسل رئيس الأركان الأردني، خماش، إلى القاهرة ليجتمع بقائد القيادة العربية الموحدة، علي علي عامر للبحث في دور الأردن في النزاع القادم - ولكن عبد الناصر لم يستقبله.

حتى والحسين يستعد للحرب، أكد للأمريكيين أنه ليس لديه نوايا عدوانية تجاه إسرائيل، وطلب منهم أن يطمئنوا الإسرائيليين كذلك. ولكنه حذر واشنطن أيضاً من خطورة مواجهة المعتدلين العرب، إذا ما كان تحالف أمريكا مع إسرائيل وثيقاً جداً: «فإذا ما نجح عبد الناصر في إظهار أمريكا أنها متطابقة مع إسرائيل فلسوف تنفضح أمريكا تماماً.» كما قال في رسالة شفوية إلى جونسون، وتابع القول: «إن عبد الناصر يبذل جهوداً مضنية لتحقيق هذا الهدف وهو على وشك تحقيقه.» (٥)

لم تكن محاولات الحسين لكسب رضا عبد الناصر بدون معارضة، على أية حال. فقد حذره العديد من مستشاريه بزعامة التل من النتائج الكارثية لمثل هذا المسار، ولكنه لم يلق بالاً لنصيحتهم. كان الملك مصمماً على صنع تحالف. فلدى سماعه أن

دمشق مازالت تصفه بالخائن، أقسم لمساعديه: «أن السوريين سيجدون على الفور من هو المخلص للقضية العربية ومن هو الخائن». (٦)

وأول من سيكتشف، ليس السفير السوري إلى عمان، بل السفير المصري، عثمان نوري. ولدى استدعائه إلى بيت رئيس الوزراء «سعد جمعة» في صبيحة يوم ٢٨ مايو، صدم السفير لاكتشافه وجود الملك هناك وسماعه منه رغبته في القيام بزيارة سرية للغاية إلى القاهرة في غضون الثماني والأربعين ساعة القادمة. هرع السفير للاتصال بمرؤوسيه، وعاد بعد منتصف الليل بالجواب. كان الجواب على التالي: إذا وعد الحسين بمقاومة أية محاولة إسرائيلية لمهاجمة سوريا من خلال الأراضي الأردنية، وإذا ما سمح للقوات العراقية دخول الضفة الغربية، وإذا ما اعترفت عمان بالشقيري وبمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للفلسطينيين، وينضم إلى العرب في مقاطعة ألمانيا الغربية، عندها يُرحَّبُ بالملك في القاهرة. كانت الشروط قاسية وثقيلة ولكن الحسين قبلها. وكان سيطير إلى مصر في فجر اليوم التالي الثلاثين من مايو.

وكان في انتظاره على الطريق المعبد بالإسفلت في المطار في ذلك اليوم طوقان وجمعة وخماش وقائد سلاح الجو الملكي اللواء صلاح الكردي. مازال الحسين مرتدياً الزي العسكري برتبة مشير، حاملاً مسدس ماغنوم (Magnum) عيار (٣٥٧). وبما أنه كان متأخراً، لم يكن لديه وقت لتوقيع إرادة ملكية بتسليم سلطاته إلى أخيه الأصغر، الحسن، قبل أن يقود طائرته من طراز كارافيل (Caravel) إلى مطار ألماظة (Al-Maza) العسكري قرب القاهرة. وكان في استقباله هناك ما لا يقل عن أربعة نواب رئيس مصريين؛ ورياض وزير الخارجية، والجنرال عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان القيادة العربية الموحدة، وأمين عام مكتب الرئيس عبد المجيد فريد. وكان على رأس هذا الوفد الكبير، عبد الناصر نفسه الذي سأل عندما أخذ يد الأردني «طالما أن زيارتك سرية، ماذا سيحدث لو اعتقلناك؟» ابتسم الملك دون أدنى انزعاج وقال: «لم يخطر ببالي قط مثل هذا الاحتمال.»

سارت الحاشية إلى قصر القبة حيث التحق بها عامر. ثم التأم اجتماع ضم الرئيس والملك والمشير في غرفة مستقلة استمر أكثر مما كان مخططاً له حتى طعام الغداء بعد الظهر. افتتح الملك حسين قائلاً: «أعتقد أن أمتنا تواجه مسؤولية مصيرية، وأن مشاعري هذه هي مشاعر كل عربي. وأعلم أن الأردن في خطر وأعلم أن الحرب مع إسرائيل قائمة لا محالة». ووضع اللوم في تدهور العلاقات المصرية - الأردنية على سوريا، ومع ذلك قال: إن قواته جاهزة للدفاع عن السوريين كجزء من جهد يبذله كل العرب أيضاً لحماية الأردن. كان جواب ناصر عريضاً: «من الضروري التوصل إلى موقف سياسي وعسكري يجعل الناس جميعهم يفهمون أن العرب قادرون على التوحد في مواجهة الأزمات. إن تقديراتي الأصلية هي أننا بحاجة إلى ثلاث سنوات أو أربع قبل أن نخوض حرباً ضد إسرائيل ولكن الأحداث باغتتنا».

لكن الحسين لم يأت من أجل بيانات عامة، بل جاء لعقد صفقة. قال لعبد الناصر إنه يريد توقيع نسخة طبق الأصل من معاهدة الدفاع السورية - المصرية، وأنه يقبل كل الفرق العربية -عراقية وسعودية وسورية وحتى مصرية- في أراضيه.

لم يناقش عبد الناصر الأمر، بل أصدر تعليماته إلى وزير خارجيته، رياض، إلى الذهاب فوراً إلى سوريا والعراق ليتفاوض على إرسال هذه القوات على وجه السرعة بما في ذلك المقاتلات النفاثة لحماية الأجواء الأردنية. كما بعث دعوة رسمية إلى عارف في بغداد، طالباً منه التعاون، وبعث إلى غزة بتعليمات لإرسال الشقيري إلى القاهرة على الفور. بيد أن الحسين، علم فيما بعد بقليل، أن لهذه الإجراءات ثمناً كبيراً، أكبر مما قد دفعه لدى مجيئه إلى القاهرة. إذ بالإضافة إلى إعادة فتح مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في عمان، فإنه سيضع (الفيلق العربي) مفخرة الأردن، تحت قيادة الجنرال رياض الذي كان تابعاً للمشير عامر مباشرة.

لقد جرى توقيع معاهدة مصرية أردنية مفادها «أن أي هجوم مسلح على أي من الدولتين أو قواتهما هو هجوم على كليهما، وأنه يجب اتخاذ كل الوسائل المتاحة لصده.» في مطلع بعد الظهر ذلك اليوم. وانقضى بقية النهار والسرور يغمر الجميع،

مع القيام بجولة إلى مهابط الطائرات وإلى مقر القيادة الجديد في هيليوبوليس (Heliopolis). جرى الاطلاع على الخرائط، والاستماع إلى إيجازات حول الوضع العسكري الراهن. وحذر الحسين مضيفيه من مخاطر هجوم إسرائيلي جوي مفاجئ؛ ولكن عبد الناصر لم يبد أي اهتمام لهذا التحذير، مصراً على أن اليهود غير قادرين على القيام بمثل هذه العملية.إن القوات العربية المشتركة سوف تنتصر في غضون أيام، كما تنبأ، مضيفاً «أنه في حال تدخل الولايات المتحدة، فإني مستعد تماماً لطلب مساعدة السوفيات».

وأخيراً، قُبيل مغادرة الملك، كان الشقيري قد دخل مرتدياً زيا ماويا مجعَّداً وعلى وجهه علامات الارتباك. إن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان وعد بقيادة جيش يدخل فيه عمان غير آبه بالحسين، يتجه الآن نحو الملك معلناً أنه رئيس الفلسطينيين»، وعبر عن رغبته في زيارة الأردن في المستقبل القريب. فضحك عبد الناصر قائلاً: «لن تذهب في المستقبل القريب، بل على الفور. «ثم التفت إلى الحسين قائلاً: «إن سبب لك أية مشكلة، ألق به في أحد بروجك وخلصني منه». (٧)

بعد أن أزاح الحسين، كما قال إلى بيرز، عبء المشكلة الفلسطينية عن كاهله وألقاه على عاتق عبد الناصر، عاد إلى مملكته. كان استقباله صاخباً. إن لقاء القمة بينه وبين عبد الناصر، المفروض أنه سري للغاية، قد أذيع في كل المنطقة ودوّى راديو القاهرة قائلاً: «سيعلم العالم أن العرب مستعدون للمعركة عندما تحين الساعة المصيرية». واستقبل الحسين بإعجاب جذل مدهش.

إذ رفعت السيارة التي كانت تقل الحسين والشقيري على الأيدي في الهواء. كان الملك منهكاً تماماً. ومع ذلك قال جمعة معلقاً: «لم أره قط سعيداً ومشرقاً كما كان في تلك الساعة. اعتقد الحسين أنه اشترى في القاهرة (وثيقة تأمين سياسية

وعسكرية) للأردن في وقت رفضت فيه الولايات المتحدة ضمان سلامة أراضيها، وأخذت تسلح إسرائيل بدلاً من ذلك.

وكان يعتقد أنه في حين أن مصر لن تتراجع عن حصار المضائق، فهي لن تبدأ الحرب، بل ستنتظر حتى تبدأها إسرائيل وعندها تقوم بتدميرها. وعلى الأقل حرم عبد الناصر من لوم الأردن لعدم انضمامه إلى التحالف العربي بغض النظر عن نصيبها في المعركة. (٨)

لم يحتفل الأردنيون كلهم بانقلاب الحسين هذا. إذ خرج التل ثانية ينتقد سياسة الملك قائلاً له: «إني مستعد لأن أقتل ألفي متمرد لأحميك من فقدان الضفة الغربية». حتى بين الفلسطينيين، كان هناك زعماء مثل رئيس بلدية القدس، أنور الخطيب، وزميله في الخليل محمد علي الجعبري قد عبرا عن خشيتهما من أن تقوم مصر بجر الأردن إلى حرب تتوسع فيها إسرائيل بالتأكيد نحو الشرق. وسرعان ما أبرز الذين انتقدوا المعاهدة أن الفيلق العربي قد وضع تحت قيادة مصرية، بينما من المفروض أن تتخذ القرارات الاستراتيجية من قبل مجلس الدفاع المشترك حتى تنشب الحرب فعلاً. حتى إنه ليس للجيش ضابط ارتباط في القاهرة. إضافة إلى أن المعاهدة ألغت الاتفاق السري الذي كان يحمل الاسم الرمزي» كوليج رن (College Run) الذي تمد بموجبه الولايات المتحدة الأردن باثنتي عشرة طائرة مقاتلة من طراز F-١٠٤ ومدافع مضادة للطيران، وبنادق عديمة الارتداد، وذخيرة. وخشية أن تصل الأسلحة إلى أيدي المصريين، أوقفت الولايات المتحدة شحن الأسلحة إلى عمان، أما الطائرات فحولّت إلى تركيا. لاحظ فيندلي بيرنز أن الملك حسين قد فتح «علبة باندورا» (sbox،Pandora) أكثر مما توقع. وأن الأحداث في الأردن كانت تذكر، بصورة مخيفة، بأغسطس (أب) من العام١٩١٤». (٩)

جاءت تلك الحقيقة إلى عمان في الأول من يونيو (حزيران) عندما حطّ الجنرال رياض في عمان وشرع على الفور بتفقد دفاعات الضفة الغربية. لم يكن هدفه إعداد المنطقة لمواجهة حدوث غزو إسرائيلي، فحسب، بل أراد أيضاً أن يجر أكبر عدد ممكن من قوات العدو من الجنوب لتخفيف الضغط عن مصر. وسوف يأتي عون آخر من كتيبتين مصريتين فدائيتين، الكتيبة ٥٣، والكتيبة ٣٣ اللتين ستنقلان إلى الأردن مزوّدتين بأوامر للتسلل إلى داخل إسرائيل وتدمير سلسة من الأهداف الاستراتيجية.

لقد ألهب وصول رياض والفدائيين عواطف الجماهير في الأردن، خصوصاً بين الفلسطينيين - تلك العواطف التي كان الشقيري تواقاً لاستغلالها. إذ غادر عمان إلى القدس، متجاهلاً أوامر الحسين بألا يغادر عمان، وألقى هناك خطبة جمعة نارية. قال، في هذه الخطبة: «إن م. ت. ف قد استعدت لتأخذ مكانها في مواقع متقدمة على الجبهة الأردنية لتقف وجهاً إلى وجه ضد العصابات الصهيونية». وإن المنظمة تملك الآن أسلحة متطورة جداً وإنه هو نفسه سيوجهها. هبت موجة من الحماس الجنوني في الجماهير التي احتشدت لتسمعه؛ فقام مشاغبون بمهاجمة القنصليات الغربية واصطدموا بالجنود الذين حاولوا تهدئتهم. وتابع القول، ومازال الهياج مسيطراً عليه: «سوف ندمر إسرائيل وسكانها، أما من يبقى منهم حيا -إن بقي أحد- فإن القوارب جاهزة لترحيلهم». (١٠)

خسوف إشكول:

إن تحالف الحسين مع ناصر نتيجة قرار إسرائيل الانتظار وعدم شن حرب، ربما يزيد من الضغط على إسرائيل كي تحارب. كان الضغط قد انفجر فعلاً مساء يوم ٢٨ مايو، إذ أعد إشكول، بعد اجتماع مجلس الوزراء، للقاء مع هيئة الأركان. وفي طريقه إلى ذلك الاجتماع، عَرَّج على محطة إذاعة إسرائيل ليخاطب أمته القلقة.

كانت غاية إشكول إعلام البلد بأن الحكومة، على الرغم من استعدادها لصد العدوان العربي، إلا أنها تعمل مع الولايات المتحدة لإيجاد حل سلمي للأزمة. كان بحاجة ماسة إلى النوم، ويعاني من رشح في الصدر مزعج، ومن عدسة اصطناعية في إحدى عينيه -نتيجة لعملية جراحية لإزالة الماء الأسود- تتحرك من موضعها باستمرار. ومما ضاعف حالته الجسمية سوءاً حالة الورقة المخطوطة التي تلقاها لدى دخول استوديو الإذاعة - مشطّبة بتصحيحات وإضافات دقيقة أخيرة - التي كان سيقرؤها مباشرة. فكانت النتيجة قراءة متلعثمة غير مفهومة بحيث فسرها المستمعون بأنها علامة على الانهاك والهلع. وليست كلمة إشكول وحدها وإلقاءها بهذه الطريقة هي التي أربكت الإسرائيليين ، بل الأنباء التي تفيد بأن إسرائيل قد وضعت مصيرها بيد دولة أخرى بدلاً من الاعتماد على مصادرها الخاصة. كتب زئيف شيف (Schiff e'Ze) كاتب زاوية في صحيفة ها أرتز (Ha'aretz) اليومية يقول: «من المحيّر أن شعباً عانى من الهولوكوست يرغب أن يصدق نفسه، ويعرض مصيره للخطر مرَّة أخرى». ويقال: إن الجنود الذين كانوا يتحلقون حول راديوات الترانزيستور في النقب قد انفجروا بكاء. (١١)

وفيما يتعلق بإشكول، فإن كوارث المساء لم تنته. إذ كان الجنرالات في انتظاره في غرفة العمليات ليسمعوا نتائج دراسة مجلس الوزراء للوضع. فمنذ إغلاق المضائق، ومخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي تتوقع هجوماً مصرياً مفاجئاً على ديمونة والمطارات الإسرائيلية، وهجوماً بالصواريخ والغازات السامة وحتى بمواد مشعة بدائية. وكان من المؤكد أن تنضم سوريا إلى هذا الهجوم، وربما الأردن، كذلك. وكان جيش الدفاع الإسرائيلي يعتقد أن أمريكا لن تتدخل وأنها ليست جادة في خطة «ريغاتا» وبالتالي أعاد الجيش إحياء بعض الخطط وعدّل عدداً من خطط الطوارئ لإبادة الجيش المصري وأخذ زمام المبادرة على الجبهات الأخرى كذلك. وكل ما كانوا بحاجته هو أمر الحكومة بالاستمرار، ولكن القوات الإسرائيلية أوقفت إلى أجل غير مسمى. دبت فوضى تعكس ذلك الوضع في سيناء. قال الجنرال أرئيل أريك شارون

(Ariel "Arik" Sharon) الضابط المظلي السابق وقائد فرقة الآن في الجنوب: «كانت الوحدات تتحرك من هنا إلى هناك تقطع مسارات بعضها البعض، وتأخذ مواقع فقط من أجل انتزاع ضجر اليوم من نفوسهم، ويدخلوا في يوم آخر. لم يكن يبدو على الجيش أنه يعلم ما كان يفعل».

كانوا يتوقعون الخلاص من الفوضى بعودة إيبان إلى إسرائيل واتخاذ الحكومة قراراً بالعمل. وبما أن رابين لا يستطيع بنفسه أن يخبر الجنرالات بأن الوضع ليس كذلك، فقد طلب من إشكول أن يقوم بهذه المهمة.

دخل إشكول غرفة العمليات، يشد ألون أزره، وخاطب كبار الضباط دون أية مقدمات. استعرض لهم أحداث الأيام القليلة المنصرمة- والرسائل من جونسون وكوسيغن، وخطة القافلة البحرية. وقال: «ليس من السياسة ولا الدبلوماسية وربما ليس من المنطق الأخلاقي أن نبدأ الحرب. علينا بضبط أنفسنا وصيانة قواتنا لأسبوع أو أسبوعين. أو ربما أطول من ذلك». وعبر عن ثقته بالتزام واشنطن بإعادة فتح المضائق، وحث الجنرالات على التفكير بدلالة الخسائر في السلاح، وفقدان العون الخارجي، والخسارة في الأرواح التي ستتكبدها إسرائيل في الحرب. وتابع قائلاً: «أنا أفهم أنكم أُحبطتم أيها القادة، ولكن النضوج والوعي يتطلب منا أن نصمد للاختبار. حتى وإن دُمّر الجيش المصري كلياً، فلسوف ينهض من جديد. ربما بعد خمسة عشر عاماً سيأتي جيل عربي آخر ويقبّلنا، ولكن ليس الآن».

أصغى القادة، ثم انفجروا ضاحكين. وبدأ يشاياهو «شايك» غافيش (Ya-shayahu 'Shaike Gavish) رئيس القيادة الجنوبية، الكلام، قائلاً: «ستظل المضائق مغلقة أسبوعين، ووضعنا يزداد سوءاً. سيموت المزيد من رجالنا». وأضاف نظيره في ا لجبهة الوسطى، يوزي ناركيز (Narkis Uzi) قائلاً: «المشكلة لا تكمن فينا بل في الجيل الأصغر الذي لن يفهم أبداً لماذا لم يبدأ جيش الدفاع الإسرائيلي بالهجوم». وأردف قائلاً: «إن التهديد الروسي خادع، وإن القوات

العربية كفقاعة الصابون تفجرها نخسة دبوس واحدة». وعلق أحد قادة الفرق أفراهام يوفي (Avraham Yoffe) مقيّماً الوضع قائلاً: «لقد أوجدت مصر بمساعدة الاتحاد السوفياتي جيشاً هدفه الوحيد هو تدمير إسرائيل. أما جيش الدفاع الإسرائيلي فقد أنشئ للدفاع عن الدولة، ولكن الحكومة لا تدع الجيش يقوم بمهمته - تلك المهمة التي يريدها الشعب».

استمر سيل التعليقات. ووافق كل من نائب رئيس العمليات ريهافام زئيفي (Rehavam Ze'eve) أسمر اللون، نحيل الجسم، يعرف شعبياً باسم غاندي، وأصبح فيما بعد زعيم اليمين الإسرائيلي المتطرف، وجنرالاً مسؤولاً عن الإمدادات والتموين في الجيش؛ والجنرال ماتيتياهو بيلد (Mattityahu Peled) الذي أصبح فيما بعد زعيم اليسار المتطرف، على أنه لا بد من إبادة التهديد المصري على الفور إن كان لإسرائيل أن تعيش. وصرح الجنرال ياريف: (Yariv) «نستطيع وحدنا تحطيم الطوق الذي يطبق على أعناقنا». ولكن أكثر الكلمات تأثيراً كانت كلمات شارون:

«لقد أزلنا اليوم بأيدينا أقوى ما لدينا من سلاح -خوف العدو منا. لدينا القوة الكافية لتدمير الجيش المصري، ولكن إذا استسلمنا في قضية حرية المرور، فإننا نفتح الباب لتدمير إسرائيل. سندفع في المستقبل ثمناً أعلى بكثير لقاء شيء يجب علينا فعله الآن بأي حال من الأحوال... الشعب الإسرائيلي مستعد لخوض حرب، وللقتال، ولدفع الثمن. فالمسألة ليست مسألة حرية المرور، بل مسألة وجود شعب إسرائيل».

بذل إشكول قصارى جهده ليحرف هذه التعليقات اللاذعة ويبعدها. فقال: إن جيش الدفاع الإسرائيلي لم ينشأ ليخوض حروباً يختارها، وإن مقدرته على خوض حرب لا يمكن أن يكون تسويغاً لخوضه الحرب. وإن مجرد وجود الجيش المصري في سيناء لا يعد أساساً للقيام بهجوم استباقي. وأردف قائلاً: إن الردع يتطلب الصبر والتحمل. لم تحدث هذه المناقشات أي أثر على الجنرالات الذين كانت إهاناتهم سوف تستمر لولا ألون الذي تدخل وأنهى النقاش. لم يدافع ألون ولا رابين عن رئيس الوزراء؛ لذلك هرب إشكول من غرفة العمليات مصاباً بالأذى والوهن.

قالت ميريام إشكول: (Miriam Eshkol) «كان عصياناً حقيقياً. الجميع قلقون، ولم يأبه أحد بالنهج الديمقراطي. إن الانقسام في صورة إسرائيل بين «كونها ضعيفة» قد أصبح في الواجهة وشق قيادة إسرائيل. قال رافائيل إيتان أحد قادة المظليين: «إن شرف الجيش الإسرائيلي قد لطخ وديس بالأقدام، ولم يعد بإمكان الجنرالات الذين قادوا الجيش والذين جعلوه شغلهم الشاغل في الحياة، أن يكظموا غيظهم». ومع ذلك، لم يحاول هؤلاء الجنرالات، مهما بلغ غضبهم الإطاحة بإشكول ولم يحاولوا قط تهديد سيادة القانون. على أية حال، بقي الجنرالات في غرفة العمليات بعد مغادرة رئيس الوزراء يبحثون سبل رفع معنويات الجيش، بما في ذلك تسريح ٣٠,٠٠٠ من الاحتياط. (١٢)

لم يكن الجمهور متسامحاً مثلهم. إذ حفلت صحف اليوم التالي بتقارير عن خطاب إشكول المتلعثم والمثير للرثاء. وادعت هاأريتز «أن الحكومة بتشكيلتها الحالية لا تستطيع قيادة الدولة في زمن الخطر». وطالبت إشكول بالاستقالة لصالح بن غوريون أو دايان، وأن يركز بصورة حصرية على «الشؤون المدنية». وأيد إعلان مأجور نشرته مجموعة «مواطنون من أجل إشكول» تشكلت في انتخابات العام ١٩٦٥، تشكيل حكومة وحدة وطنية تضم جميع الأحزاب الرئيسة. كتب تيدي كوليك (Teddy Kollek) عمدة القدس الغربية يقول: «يبدو أن تردد إشكول في موضوع الهجوم ناجم عن ضعف، وليس عن حكمة». مستبعداً فكرة القافلة الدولية، واصفاً إياها بأنه «لا معنى لها؛ لأنه حتى بعد عبور السفن الأمريكية والبريطانية، فإنه يمكن إغلاق المضائق ثانية». (١٣)

كانت الأنشطة خلف المشاهد محمومة أكثر. فقد كتب بن غوريون في يومياته: «طالما بقي إشكول في رئاسة الوزارة فإننا سنهوي إلى الهاوية». ومع ذلك أقنعه مناحم بيغن منافسه السياسي القديم أن يعود إلى رئاسة مجلس حرب خاص ويكون إشكول فيه نائباً له. فرفض إشكول الفكرة ساخراً بقوله: «هذان الحصانان لا يربطان إلى عربة واحدة». كما التقت غولدا مائير بيغن وشمعون بيرز من حزب رافي (Rafi) واقترحوا أن يعين دايان في منصب جديد مبتكر كنائب لرئيس الوزارة

لشؤون الدفاع. أما دايان فقد رفض حتى التفكير في العرض وأصر على استلام حقيبة الدفاع. وما إن يحصل على هذه الحقيبة، كما قال، فإنه لن يجلس في مكتبه فقط، بل سيدير الحرب بنفسه.

ودون أن يحشد لنفسه دعماً، ترك دايان السياسيين الآخرين بمهارة أن يناقشوا قضيته، وبذلك بدَّ بيغال ألون بوصفه المرشح المفضل لوزارة الدفاع. وكان رئيس الأركان السابق، البطل في نظر الجمهور، ذو الشعبية الواسعة خصوصاً بين النساء، كان يُحَيَّا أينما ذهب. إضافة إلى أن نشر كتابه «يوميات حملة سيناء» في الوقت المناسب ممجداً فيه تحقيق «حرية الملاحة... في خليج العقبة، وإنهاء الفدائيين، وتحييد القيادة العسكرية المصرية -السورية- الأردنية المشتركة» عَزَّزَ من هيبته ومكانته. ولتحييد دايان بدأ إشكول يعوّم فكرة إدراجه في الخدمة الفعلية. كان رابين راغباً في عرض منصب رئيس هيئة الأركان عليه، ولكن دايان عزف عن ذلك، إذ كان يريد منصباً واحداً: رئيس القيادة الجنوبية. (١٤)

كما تصاعد الاضطراب في الأوساط الشعبية والسياسية، كذلك تصاعد في أوساط الجيش. لقد استدعى رابين حاييم بارليف (Haim Bar-Lev) إلى الخدمة نائباً له، أملاً في أن يخفف الأعباء عن كاهله. إن بارليف المولود في سراجيفو (Sarajevo) وكولومبي الثقافة والذي رفع إلى قائد مشاة وقائد مدرعات في العام ١٩٤٨ والعام ١٩٥٦، كان يدرس التكتيك في فرنسا عندما وصله الاستدعاء من رابين. أثار هذا التعين الشائع في هيئة الأركان العامة، غضب وايزمن الذي كان من المفروض أن يكون هو نفسه، وليس بارليف، خليفة لرابين. قال في مذكراته: «لقد نسفت مكانتي. إذ كنت بالنسبة إليهما (رابين وإشكول) رجلاً وحشياً... يدعي بأن لنا الحق في الخليل ونابلس وكل القدس وأن علينا أن نطبق هذا الحق بقوة السلاح.... «متهور وطني طائش».

هدد وايزمن، في خضم هذا الاضطراب الوطني، بالاستقالة. ودخل مكتب رئيس الوزارة ضارباً الأرض بقدميه.مقاطعاً طعام الغداء مع وزير المالية بنحاس سابير، وقال مزمجراً: «الدولة تتدمر، يا إشكول. لماذا تضيع وقتك مع موشي دايان؟ من ذا الذي يريد بيغال ألون؟ أصدر الأمر وسوف نكسب الحرب... وستكون رئيس وزراء النصر!» ثم نزع الشارات والكتفيات وألقى بها عمداً على مكتب إشكول، وانفجر عاصفاً مرَّة أخرى.

فيما يتعلق بالجمهور الإسرائيلي الذي لم يتورط في لعبة السلطة تلك، كانت المحنة تستهلكهم جميعاً. إذ كان الآلاف في طول البلاد وعرضها يسارعون إلى حفر الخنادق، وبناء الملاجئ وملء أكياس الرمل. وفي القدس، بوجه خاص، حُوّلت المدارس إلى ملاذات من القنابل وأُعِدَّت لذلك، وكانوا يتدربون يومياً على الغارات الجوية. حشدت جميع حافلات الركاب الكبيرة والتكسيات، وأطلقت حملة طوارئ للتبرع بالدم. وَوُجّه طلب عاجل إلى الجراحين - ليكونوا، بالنظر إلى الظروف القاسية، على استعداد جسمياً، وطبياً، وخبرة» - وذلك عن طريق الصليب الأحمر، كما طلبت وحدات إضافية من البلازما من الخارج. وشكلت لجان خاصة مسؤولة عن جمع الأطعمة الأساسية، ولأخذ مكان العمال الذي يستدعون إلى الجبهة، ولإجلاء الأطفال إلى أوربا. وأعِدَّ أكثر من ١٤٠٠٠ سرير مشفى، وكدّست مضادات السموم لمعالجة ضحايا الغازات السامة. وكان متوقعاً أن تصل على دفعات كل منها٢٠٠ وحدة. كما حفر حوالي ١٠,٠٠٠ قبر. (١٥)

إن النقطة المضيئة الوحيدة في خضم هذه الاستعدادات المميتة كانت ذلك الدعم والتعاطف المنصب من يهود العالم. تدفق متطوعون بأعداد لا تستطيع إسرائيل استيعابهم -وكان يفضل بينهم الشباب والمهرة والعلماء اليهود- وفاقت التبرعات كل التنبؤات والتقديرات. وخرجت مظاهرات جماهيرية في نيويورك، ولندن، وشنت حملة لجمع المال إلى «صندوق الطوارئ» في جميع أنحاء العالم. «ولأول مرَّة تصرف يهود أوربا كرجل واحد لصالح إسرائيل».

«وحشد الدعم الأخلاقي والسياسي والاقتصادي كله». وكتب زعيم اليهود في الفرنسيين إدموندي روتشيلد (Edmond de Rothschild) إلى سابير. وكتب السفير الإسرائيلي من باريس وولتر إيتان (Walter Eytan) تقريراً يشير إلى «ثورة شاملة» لدى اليهود الراغبين في التبرع بالدم، وإيواء الأطفال المرحلين، حتى إنهم يبيعون أعمالهم الفنية لجمع المال إلى إسرائيل. كما وردت التبرعات والإسهامات من غير اليهود كذلك. ومن سخرية القدر أن تبرعت ألمانيا بوجه خاص بعشرين ألف قناع غاز أمريكي. (١٦)

وإن كل هذه المظاهر لم تخفف الإحساس بقدوم كارثة، وبأن اليهود على أبواب هولوكوست آخر. وهاجم حنازيمر (Hanna Zemer) نائب محرر صحيفة دافار اليومية قائلاً: «ماذا تنتظر؟» ووصف عزلة إسرائيل العالمية والإصابات الهائلة التي ستحل بها. واختتم مقالته بقوله: «سيجري الدم كالماء». باللغة البديشية (Blut vet sich giessen vie vasser) وكتب رابين فيما بعد واصفاً الحالة: «كانت الأيام تجر نفسها مثقلة بعبء الاجتماعات والمشاورات التي يسودها التوتر العصبي.... لقد قيمنا الوضع مراراً وتكراراً، وتنبأنا بالخيارات، وحددنا مواضع الوحدات، ووضعنا الخطط - في حين ظل قادتنا السياسيون أسرى آمال خادعة في إمكانية تلافي نشوب حرب». كان هناك حديث عن قصف واسع للمدن الإسرائيلية، وعن إبادة جيل كامل من الجنود. وانتشرت نكتة شعبية عن يافطة عُلّقت في مطار اللد الدولي تنصح آخر شخص يغادر البلاد بأن يطفئ النور. (١٧)

ويبدو أن سفر الرؤيا قد وصل عندما جرى تبادل إطلاق نار على حدود سيناء لأول مرَّة. إذ كان قد نصب كمين من المظليين الإسرائيليين لدورية مصرية كانت داخلة إلى الأراضي الإسرائيلية قرب كيبوتس بيئيري (Be'eri) جنوب شرق غزة. ثم أطلقت قذائف مدفعية على بيئيري وناحال أوز (Nahal Oz) المجاورة وأشعلت النيران في المحاصيل. وعلى الرغم من أن المظليين ظلوا ثابتين في مواقعهم ساعات فقد تردد الجنرال إسرائيل تل (Israel Tal) قائد الفرقة المحلي، في إرسال

تعزيزات. إذ كان يعلم أن أدنى تصعيد ربما يثير حرباً. مرَّ الحادث على أية حال، ليلقي حادث آخر بظلاله عليه عندما اخترقت طائرات ميغ المصرية الأجواء الإسرائيلية واستطلعت مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي. واستخلص بعض النقاد والمحللين أن العرب بدؤوا يقلقون، ويكسبون الثقة. إذ قال إشكول إلى الكنيست في ٢٩مايو: «لقد خلق الكولونيل عبد الناصر وضعاً مشحوناً بخطر الحرب. ومن المحتمل أن ينشب حريق هائل». (١٨)

لم يكن ذلك الحريق الهائل أقرب إلى النشوب منه عندما قام الحسين برحلته إلى القاهرة. إذ صرح الحسين لدى عودته قائلاً: «كل الجيوش العربية الآن محيطة بإسرائيل. الجمهورية العربية المتحدة، والعراق، وسوريا، والأردن، واليمن، ولبنان، والجزائر، والسودان، والكويت... لا فرق بين شعب عربي وآخر، ولا فرق بين جيش عربي وآخر.» طار الجنرال خماش إلى بغداد ليطلب أربعة ألوية إضافة إلى ١٨ طائرة مقاتلة للالتحاق بالأربع والعشرين طائرة هو كرهنتر (Hawher Hunter) الأردنية. كل هذه القوات مع أحد عشر لواء أردنياً -تضم ٥٦,٠٠٠ رجل و٢٧٠ دبابة حديثة من طراز سنتوريون (Centurion) وباتون (Patton)- ستهدد إسرائيل من أضيق نقطة يبلغ عرضها تسعة أميال بين الضفة الغربيّة والبحر. وعلى مرتفعات الجولان كان حوالي ٥٠,٠٠٠ جندي و٢٦٠ دبابة ومدافع ميدانية كثيرة قد أخذت مواقعها، وسوف تعزز في الحال بدبابات عراقية. كل هذه القوات كانت تنسق مع ١٣٠,٠٠٠ جندي مصري و٩٠٠ دبابة و١١٠٠ مدفع جاهزة لما أسماه عبد الناصر: «العملية التي سوف تفاجئ العالم». (١٩)

إن توقيع المعاهدة المصرية - الأردنية قطعت كل أمل لإشكول في الاحتفاظ بوزارة الدفاع. وفي محاولة يائسة أخيرة قبل بطلب دايان ليكون قائد المنطقة الجنوبية. استدعى رابين، إلى غرفة العمليات، غافيش (Gavish) وأخبره هناك بالقرار عارضاً عليه منصب نائب القائد.

كان غافيش، قوي البنية صارم الوجه، قد شفي من جرح حاد أصيب به في ساقه في العام ١٩٤٨، فعين رئيس عمليات في العام ١٩٥٦، والآن بعد أن بلغ من العمر ٤٢ عاماً قد أصبح جنرالاً بكامل الرتبة. قضى الأسبوعين المنصرمين يعمل جاداً بلا كلل ولا ملل لإعداد رجاله لما كان يعتقد أنه الحسم المحتوم لمصر. وبموجب عملية اللسان الأحمر (Lasbon Aduma /عبري) «استخدم بضع دبابات وسيارات جيب وعدة ياردات من الشبك المموه لتشكيل» فرقة الشبح» - الفرقة ٤٩ - ونشرها في المنطقة بين كونتيلا والقسيمة، حيث حدث الخرق الإسرائيلي في العام ١٩٥٦. مخدوعة بهذه الحيلة، انتقلت قوة الجنرال الشاذلي من رفح باتجاه الجنوب، وانتقلت الفرقة الرابعة إلى موقعها الاحتياطي كاشفة دفاعات سيناء الشمالية للدبابات الإسرائيلية. وكانت المكافأة الآن هي إزاحة غافيش. وبما أنه سُحق يقرّ إشكول وخاب أمله برابين الذي التزم بالقرار، قدم غافيش استقالته، قائلاً: «إنني أحيي دايان، ولكن لن أبقى دقيقة واحدة».

بدا دايان مذعناً للتعيين، إذ قال للصحافة: «إنني مستعد، كجندي، أن أقود نصف مجنزرة». ولكن التيارات السياسية اجتمعت لتدفع به إلى مكان آخر. كان الحزب الديني القومي (NRP) مستعداً للانسحاب من الحكومة إذا لم تحقق الوحدة الوطنية، ولكن رافي (Rafi) وغاحال (Gahal) رفضتا الانضمام إليها دون دايان. كانت غولدا مائير تريد ألون وزيراً للدفاع -واقترح ألون أن يحل دايان محل إيبان- ولكن حزب ماباي رفض هذه الحركة. وهكذا استمرت المكائد، في حين كان صبر الأمة ينفد وخطط للخروج بمظاهرة جماهيرية يوم السبت في ٣ يونيو تطالب بحكومة وحدة.

سأل إشكول الساخط، حاييم موشي سابيرا: «دعني أفهم، أنت تريد دايان ولا تريد الحرب؟» ولكن إشكول كان يعرف الجواب: لقد فقد مجلس الوزراء إيمانه بكفاءته كوزير دفاع. هذا الافتقار إلى الثقة بنفسه هو الذي جعل مناحم بيغن يدعم بن غوريون رغم معارضته للحرب. لم يعد هناك بديل عن الاستسلام. «فوزراء

كثيرون، وأعضاء كينست كثيرون جداً، والعديد من الجنرالات، والشارع -ودائما الشارع- كلهم كانوا يدعمون دايان». كما قال الكولونيل ليور نادباً واردف قائلاً: «منذ تلك اللحظة حتى موته لم يعد ليفي إشكول هو نفسه». (٢٠)

في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الأول من يونيو (حزيران) أقسم، أخيراً، دايان اليمين في تل أبيب. كانت القيود على منصبه هائلة. فاستجابة لإصرار إشكول، وافق دايان ألا يصدر أمراً بأي هجوم بدون موافقة رئيس الوزراء ولا يقر أية عملية تخالف خطة الحرب العامة. ولا أن تقصف مدن عربية ما لم تقصف مدن إسرائيلية أولاً. ولمزيد من كبح سلطات دايان، أتى إشكول بيغال يادين (Yigal yadin) عالم الآثار البارز، ورئيس أركان ثاني، وعينه مستشاراً خاصاً في شؤون الدفاع.

كان رابين، مزدوج الموقف بشأن التعيين. قال ريهافام زئيفي: (RehavamZeevi) «لم يكم رابين متحمساً للتعيين، ولكنه يعرف كيف يقبل الحقائق».

فقد قرظ إسهام دايان لرفع معنويات الأمة، واعترف أن خوض الحرب مع دايان، أفضل من خوضها مع إشكول، كوزير دفاع. ولكن بسبب عجزه عن رؤية نتائج تلك الحرب، أراد ان يشارك في عبئها ومسؤوليتها».

ولدى لقائه مسؤوله الجديد الذي فاقت سمعته العسكرية سمعة رابين نفسه سأله رابين: «هل أنت مستعد لتقبُّل مسؤوليتي في الأمور العملياتية؟» فأجابه دايان بأنه سيحترم رئيس الأركان كما كان الجنرال ماكسويل تايلور (Makwell Taylor) قائد القوات الأمريكية في فيتنام يحترم هيئة الأركان المشتركة. وبهذا، تابع وزير الدفاع الجديد طريقه إلى غرفة العمليات، ليوجه هناك إهانة إلى الجنرالات بأن طلب منهم بفظاظة: «أطلعوني على خطتكم - إن كان لديكم خطة. فلدي خطتي». (٢١)

توقف أهاريل ياريف (AharaleYarih) في آخر ذلك المساء في السفارة البريطانية «ليشرب» ليله لطويل مع السفير ميخائيل هاداو (Michael Hadow). وفي أنخابه، شكى ياريف أن إشكول عاجز عن اتخاذ قرار بسبب خوفه من الروس، وملامة السمّوع (الخطيئة المروّعة).

وشكى من أن إيبان قد عصى الأوامر، وركز في مباحثاته في واشنطن على الحصار، وليس على أمن إسرائيل. فكانت النتيجة أن حُمِّلت مسؤولية إسرائيل إلى دايان -الكريه الأناني المغرور- والذي سيحارب على ثلاث جبهات، ويفوز في الحرب، في يومين، ولكن بخسائر مخيفة. كان هاداو، الخبير في شؤون إسرائيل والشرق الأوسط منذ مطلع خمسينيات القرن العشرين، هادئاً. كان يراقب الوضع في تيران «ككلب صيد صغير يراقب جحر جرذان»، ولم يكن يعتقد أن الحرب حتمية. كتب يقول: «إنها تدفع لإسرائيل لجعلها ترتعد خوفاً من حين إلى حين» وأكد «لياريف الصغير» أنه لا يوجد ما يقلقه أو يزعجه، وطمأنه بأن «المجتمع الدولي لن يدع إسرائيل تحارب ساعتين، لا تهتم ٤٨ ساعة». وطلب منه أن يثق بالولايات المتحدة. (٢٢)

كان لنصيحة هاداو صدى متناقضاً في إسرائيل، على أية حال، لدى دخول الأزمة أسبوعها الثالث الأكثر حسماً. إذ ما كاد جونسون أن يعد ببذل كل جهد ممكن لإعادة فتح المضائق وأنه لا يتخلى عن إسرائيل-حتى تراجع عن ذلك. فالبيت الأبيض استمر في تأخير الاستجابة لطلبات السلاح المقدمة من إسرائيل، كانت القائمة تتضمن ١٠٠ صاروخ هوك، و١٤٠ دبابة باتون، و٢٤ طائرة سكاي هوك نفاثة، بل اتسعت أكثر لتشمل تعيين ضابط ارتباط مع القوات الأمريكية. سمع جين روستو (Gene Rostow) هارمان (Harman هاداو) يشكو قائلاً: «إذا نشبت الحرب، لن يكون لدينا رقم هاتف نتصل به، ولا شيفرة لتمييز الطائرات، ولا وسيلة للاتصال بالأسطول السادس».

كما أن اقتراحاً إسرائيلياً بتخفيض متبادل للقوات في سيناء والنقب يتم بوساطة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، قد أُهمل كذلك. إذ كانت الإدارة الأمريكية راغبة، في الغالب، أن تمارس ضغطاً اقتصادياً على مصر- كما أخبرت الإسرائيليين.

حفَّز هذا الافتقار إلى عمل حاسم إشكول على إرسال رسالة حماسية إلى جونسون. قال له فيها مذكراً إياه بأن «وعده في اتخاذ كل الإجراءات لإعادة فتح

المضائق» قد جعل الحكومة ألا تصوت لصالح الحرب. وحذره إشكول بأن إسرائيل كانت «تقترب من نقطة تصبح فيها النصائح بضبط النفس مفتقرة للأساس المنطقي والأخلاقي». وكان المسار الوحيد هو إجبار يوثانت على العمل من أجل إعادة الوضع الراهن إلى ما كان عليه في سيناء، وعلى الموافقة على لجنة ارتباط أمريكية-إسرائيلية، وإرسال القافلة، في غضون أسبوع أو أسبوعين. واختتم إشكول رسالته بالتأكيد على أن إسرائيل كانت تمر في أصعب أيام في تاريخها، ولكن الرسالة لم تحدث أي تغيير في موقف أمريكا. بل أنكر جونسون أنه قال «جميع الإجراءات» بل قال: «كل إجراء ضمن سلطاته الدستورية». وطلب من وولت روستو أن يوضح تلك النقطة تماماً للإسرائيلين على الفور. (٢٣)

كان جواب إفرايم إيفرون (Ephraim Evron) على النحو التالي: «هل أنا مخطئ في تقييم تصميم الرئيس شخصياً، كما فعلت؟» فأجابه روستو بغموض: «إنك تعرف الرئيس جونسون منذ زمن طويل، ولك الحق أن يكون لك تقييمك الخاص بك.» فقال والدمع يترقرق في عينيه: «يتوقف الشيء الكثير على ذلك الرجل». اندفع إيفرون ليرسل تقريره حول المحادثات، فكانت خلاصة: كصفعة على وجه القدس «كما قال رابين». لم يكن هناك سبيل لسوء فهم البرقية: لا يمكن أن نتوقع أي عمل من جانب الولايات المتحدة... كان لها مظهر القشة التي قصمت ظهر البعير وإحساسها.

وكانت هنا أزمة أخرى تنشأ بين الولايات المتحدة وإسرائيل، إنها أزمة ثقة. ولدى سؤال روستو لإيفرون: «كم ستنتظر إسرائيل الآن؟» أجاب إيفرون بعد تأمل: «حوالي عشرة أيام». أما السفير باربر فقد تنبأ بفترة أقصر بقوله: «إذا تصاعدت العمليات الإرهابية الكبرى من سيناء أو قطاع غزة، فإن إسرائيل ستضطر للحرب في النهاية. يشعر الإسرائيليون بأنهم يستطيعون إنهاء عبد الناصر تماماً، وإذا لم تكن هناك وسيلة أخرى لوقف الإرهاب فإنهم سيخوضون الحرب». ومع أن إشكول قد صدم بتقرير إيفرون، كان راغباً في بذل جهد أخير واحد. سوف يرسل مائير أميت (Meir Amit) إلى واشنطن لينجح حيث فشل إيبان في تأكيد ما إذا كانت الإدارة الأمريكية

تنوي حقاً أن تقف إلى جانب إسرائيل، وإذا كان الأمر غير ذلك، هل تستطيع إسرائيل التصرف وحدها. (٢٤)

كل جهد ممكن:

ما بدا للإسرائيليين تراجعاً عن عهد، كان يُرى عند الأمريكيين بأنه نتاج إحباطات مزعجة. قال وولت سترو: «منذ اللحظة التي كان إيزنهاور واضحاً في أن وعداً قد قُطع، لم يساور جونسون شك بأنه سيعيد فتح المضائق». لقد دعا إلى تبنى موقف قوي بشأن الأزمة محذراً جونسون أن سياستها قد تجاوزت «الرقم القياسي» ولم تكن عملاً كافياً. ولكن الرئيس، واجه في تعامله مع الشرق الأوسط عقبات كأداء. إذ كانت خطة ريغاتا (سباق الزوارق) قد تجمدت في المؤسسة الدفاعية، وفي الـCIA، وفي هيئة الأركان المشتركة التي أخذ الشك يساورها في ما إذا كانت للولايات المتحدة قوات كافية لتطبيقها. جاء في تحليل أجرته مجموعة مراقبة للشرق الأوسط أن «التهديد بالقوة يمكن أن يبقي عبد الناصر في مساره الحالي فقط، ولابد من اللجوء إلى إثارة الغرور والطمع عنده». عندما سأل باتل الجنرال ويلر عما يمكن حدوثه إذا ما أطلقت النار على سفينة حربية أمريكية أرسلت إلى تيران، صرخ في وجهه وضرب بقبضته على الطاولة، قائلاً: «ذلك يعني الحرب بالوك».

بدت المعارضة العسكرية لخطة ريغاتا باهتة بالمقارنة مع المعارضات التي أثارها الكونغرس عندما رفع مسؤولون كبار من البيت الأبيض -راسك وماكنمارا وهمفري- قضيتهم إلى هيل (Hil).

وجاؤوا بمسوَّدة قرار مشترك يخول الرئيس «اتخاذ العمل المناسب بما في ذلك استخدام قوات الولايات المتحدة المسلحة لتأمين مراعاة هذا الحق (حق حرية المرور) بالتنسيق مع الدول الأخرى». لم يتأثر الكونغرس بذلك. إن لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ التي ساءها ما أسماه راسك «Tonkin Gulfitis» لم تبد أي تعاطف مع خطة ريغاتا. فكان أعضاء مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد (Mike Mans-

field)، ووليام ج. فولبرايت (William J.Fulbright) وألبرت غور (Albert Gore) متشددين بوجه خاص بألاَّ تقود الإدارة الأمة إلى حرب فيتنامية ثانية، وأن مشكلة الشرق الأوسط يجب أن تحل ضمن إطار الأمم المتحدة. حتى الشيوخ المؤيدين لإسرائيل -روبرت كنيدي ويعقوب جافيش (Jacob Javits)- عبَّرا عن تحفظات بشأن فكرة القافلة. وبعد مناقشة حوالي تسعين من أعضاء الكونغرس، كتب راسك وماكنمارا المُثبِّطين، إلى الرئيس: «في حين أنه احتمال تحول حمائم فيتنام من أعضاء الكونغرس يتحولون إلى صقور (إسرائيليين). صحيح أنّ هناك جهداً يبذل للحصول على حل ذي معنى من الكونغرس يتعرض إلى خطر أن يتحول إلى نزاع قاس». (٢٥)

ويعد الحصول على موافقة الكونغرس مشكلة واحدة من مشكلتي ريغاتا. أما المشكلة الأخرى فهي الحصول على موافقة دول أخرى للانضمام إلى هذه الخطة. كان جونسون يفترض أن أربع عشرة دولة، على الأقل، من الدول الثماني عشرة التي عرضت عليها الفكرة ستنضم إلى المبادرة، ولكن أربع دول فقط هي أيسلان (Iceland)، نيوزيلاند (New Zealand)، واستراليا (Australia) والبلاد المنخفضة (Netherlands)- سوف توقع تصريحاً يدعم حرية المرور في تيران، ولم يوافق على إرسال سفن سوى الأستراليين والهولنديين. أما إيطاليا وألمانيا والبرازيل فقد أحجمت عن الالتزام، مهما كان غامضاً، بأي عمل عسكري. وفرنسا مازالت تصر على عقد قمة رباعية للدول الكبرى. في حين نفت الأرجنتين أنها دولة بحرية أساساً. وكتب البلجيكيون إلى دبلوماسي أمريكي يقولون: «إنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار بهذا الشأن». أما خيبة الأمل الكبرى فكانت كندا إحدى رعاة خطة ريغاتا. فخوفاً من حركة عربية عنيفة ضد كندا -إذ أُمرت كتيبتها الموجودة في قوات الطوارئ الدولية أن تغادر سيناء خلال ثمان وأربعين ساعة بسبب اتهامها بمحاباة إسرائيل- تخلت كندا عن فكرة القافلة لصالح إحياء اتفاقية الهدنة وتوضيع قوات الطوارئ الدولية في إسرائيل.

كتب الرئيس في يومياته: «لا يريد الكنديون والأوربيون تحمل المسؤولية، ويقولون إنها ليست مشكلتهم، ولن يدخلوا الشرق الأوسط على الفور». لقد كان تهديد عبد الناصر بإطلاق النار على أية سفينة تحاول كسر الحصار وبتعليق تدفق النفط العربي إلى من يملكون تلك السفينة، مخيفاً بوجه خاص. وفي مذكرة بعث بها سوندرز (Saunders) إلى وولت روستو أثار احتمال قيام الولايات المتحدة بإرسال قافلة وحدها دون أن يتبعها أحد. (٢٦)

حاول رئيس الوزراء ويلسون تشجيع LBJ الذي أخذت شكوكه تتعاظم بقوله: «ربما لا ننجح» ومن المحتمل ألا ننجح. ولكن الرأي العام عندنا لن يفهم، على ما أعتقد، أو يدعم ما سنفعله بعد ذلك إذا لم نستطع إقناعه بأننا حاولنا. «إن التحالف الأنكلو-أمريكي الذي كان يتمزق خلال حرب العام ١٩٥٦ قد تماسك أثناء الأزمة الحالية إذ تقاسمت الولايات المتحدة وبريطانيا الرأي في فكرة «ريغاتا» ولكن بدأت تلك العلاقة تتآكل تحت ضغط الرأي العام المحلي والدولي. ادعت ورقة سياسية أُعِدَّت لمجلس الوزراء البريطاني «أن العمل الدولي (بشأن المضائق) سوف يفهم على أنه عمل أنكلو-أمريكي متنكر، تدعمه في أحسن الأحوال دولة أوربية أو دولتان، وربما أكثر قليلاً، ولكنه سيكسب عداوة بقية العالم». ووافقت استنتاجات مجلس الوزراء على:

«تمثل النزعة العسكرية لدى الدول العربية، وخصوصاً الجمهورية العربية المتحدة تغيراً دائماً في ميزان القوى في الشرق الأوسط لغير صالح إسرائيل، ولابد لها وللقوى الغربية من قبوله... فمن المشكوك فيه أن نفرض احترام حقوق خليج العقبة التي فشلنا في تأكيدها في قناة السويس خلال مدة طويلة. وليست استعادة حق المرور البريء في مضائق خليج العقبة بأمر جوهري للمصالح البريطانية».

كانت بريطانيا تزداد ليناً فيما يتعلق بخطة ريغاتا، ولكنها تتمسك بها عساها تستعيد وجود قوة أمم متحدة رمزية توضع في المضائق تحت السيطرة المصرية. وتحجز كل الشحنات الاستراتيجية الذاهبة إلى إسرائيل ما عدا النفط. وتبذل جهوداً في الوقت نفسه لردع إسرائيل عن خوض حرب وتوريط العالم في مواجهة

بين القوى العظمى. لقد بدأ ويلسون المنزعج من محاولات أمريكا تصوير القافلة بأنها مبادرة بريطانية «وقرنها بالمصالح الإسرائيلية وليس بالمصالح العالمية، يشك بأن جونسون قد وعد إيبان أكثر مما أُعلن عنه. رفض رئيس الوزراء التوقيع على الإعلان وقيَّد انخراط بريطانيا في تخطيط بحري مشترك. (٢٧)

ومع ذلك. استمر التخطيط البحري، خشية إثارة شكوك الكونغرس. جُمعت تقارير ودراسات تفحص وضع أمريكا في مياه تيران الزئبقية القانونية، وأجريت تقديرات للأضرار المحتملة التي يمكن أن تنجم عن تطبيق خطة ريغاتا - بليون بالعملة الأجنبية، وبلايين بموجودات رأس المال. وضع جدول للعملية. بحيث تبدأ بسفينة إسرائيلية ترفع علماً أجنبيًّاً وتحمل شحنة غير استراتيجية، يتبعها عدد من السفن المماثلة تحمل نفطاً. فإذا ما أعيقت أي من هذه السفن في المضائق، تقوم مدمرتان أمريكيتان وسفينة قيادة تكتيكية بتحدي الحصار. وإذا ما هوجمت هذه الكتيبة-وهو احتمال غير وارد حسب رأي المخططين العسكريين -تقوم قوة عسكرية متمركزة في البحر المتوسط. «بتحييد قدرات العدو الجوية»، وإذا لزم الأمر تقوم بإنزال بحري-بري. وأخيراً، إذا ما نشبت الحرب بين إسرائيل ومصر تقدم إلى إسرائيل، بغض النظر عمن بدأ القتال، معونات تشمل الطعام والمساعدات الإنسانية والذخيرة. (٢٨)

كان من المفروض أن ينجز تخطيط الطوارئ المتعلق بخطة ريغاتا في الخامس من يونيو (حزيران) رغم أن البدء في العملية ربما يستغرق شهراً أو أكثر - وهو وقت غير متوافر لدى جونسون. وبسبب الافتراض بأن الإسرائيليين لن يؤخروا قيامهم بعمل عسكري أكثر من الأسبوعين المذكورين في رسالة إشكول، بدأت هيئة الأركان المشتركة الأمريكية بإرسال حوالي ٦٥سفينة إلى شرق البحر المتوسط. والتحقت سفينة إنتربيد (Intrepid) العائدة من فيتنام والتي عبرت بنجاح قناة السويس بأختيها حاملتي الطائرات أمريكا(America) وستراتوغا (Stratoga) من الأسطول السادس. وبقي الأسطول خارج قوس نصف قطره (٢٤٠) ميلاً عن بورسعيد -بحيث لا يستثير المصريين، ولكن ضمن مدى ضرباته.(٢٩)

رغم عدم إدراج سفينة البحوث الفنية المساعدة العامة «Ussliberty» التي يبلغ طولها ٤٥٥ قدماً وتحمل ٢٩٤ رجلاً في قائمة هذه السفن إلاَّ أنها تلقت تعليمات بالإبحار من ساحل العاج إلى روتا(Rota) في إسبانيا. وعلى الرغم من أن السفينة لم تكن مسلحة إلا بمدافع رشاشة عيار ٥٠، فقد كانت مزوّدة بأجهزة تنصت وفك تشفير عالية التقنية، ويضم طاقمها عدداً من أعضاء مجموعة الأمن البحرية. كانت السفينة ليبرتي (Liberty) سفينة تجسّس اسمها الرمزي روكستر (Rockstar) وتعمل بإمرة وكالة الأمن القومي. في روتا، صعد إليها ثلاثة مترجمين من الهيئة البحرية العربية، حيث انضموا إلى ثلاثة خبراء روس. وبعد إجراء بعض الإصلاحات أقلعت في الثاني من يونيو (حزيران) متجاوزة أوامر قيادة الأسطول الأمريكي بالبقاء في روتا حتى «تلقّي توجيهات أخرى»، مبحرة بأقصى سرعتها إلى الشرق الأوسط لتقوم هناك بدور الدورية خارج المياه الإقليمية المصرية و الإسرائيلية. (٣٠)

لم تكن مهمتها الحقيقية معروفة حتى لقائدها ويليام ل.ماك غوناغل (William L.Mc Gonagle)، التي ربما كانت تتبع تحركات القوات المصرية والمستشارين السوفيات في سيناء.

كان جونسون ملتزماً بخطة ريغاتا، ومع ذلك لم يمتعه ذلك الالتزام من اللجوء إلى بدائل دبلوماسية. نجمت الحاجة إلى هذا الخيار عن معارضة الكونغرس والدول البحرية للخطة وعن التنبؤات السوداوية التي صدرت عن الدبلوماسيين الأمريكيين في الشرق الأوسط.

جاء في تقرير السفير بورتر (Porter) في بيروت أن ما من أحد في العالم العربي يؤمن بأن القضية هي قضية المضائق -إذ يتساءلون: هل ستهتم الولايات المتحدة بهذا الشكل لو كانت المسألة تتعلق بميناء العقبة الأردني؟- وحذر من الوقوع في فخ السوفيات. وكتب هيو سميث (Hugh Smythe) من دمشق يقول: «لدينا في الميزان، إسرائيل، دولة عميلة لنا غير قابلة للحياة، قيمتها عند الولايات المتحدة قيمة

عاطفية، ومقابلها في الكلفة الأخرى من الميزان سلسة متكاملة من المصالح الإستراتيجية والسياسية والتجارية / الاقتصادية الحيوية المتمثلة في البلاد العربية.» ونصح بيرنز في عمان الولايات المتحدة، مستشهداً بالمتطلبات الأمنية القومية بألاّ تفي بالتزاماتها تجاه إسرائيل». وأوضح قائلاً: «إنه في حال قيام إسرائيل بالعدوان فإننا لن نستطيع إقناع العرب بأننا لم نشجعها على فعل ذلك. وسوف يدمر هذا جميع مصالحنا في شمال إفريقيا والشرق الأوسط... لسنوات قادمة».

وأخيراً ذكَّر نولتَ (Nolte) من القاهرة بأن عبد الناصر قد فعل بإسرائيل ما فعلته إسرائيل بمصر في العام ١٩٥٦-واحدة بواحدة- وأن الولايات المتحدة ليست ملزمة بإنقاذ الدولة اليهودية - التي أقيمت بالقوة». ثم حذر من أن المصريين سوف يطلقون النار على القافلة، قائلاً: «ليس هناك ما يقنعنا بأن الجمهورية العربية المتحدة التي يدعمها السوفيات دعماً كاملاً، لن -«وكرر كلمة «لن»- تواجه عسكرياً أية سفينة أو قوة أخرى تحاول فرض حرية المرور، بالقوة». (٣١)

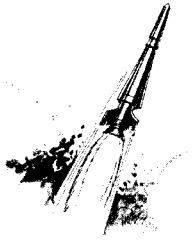

operkandl.com

obeikandl.com

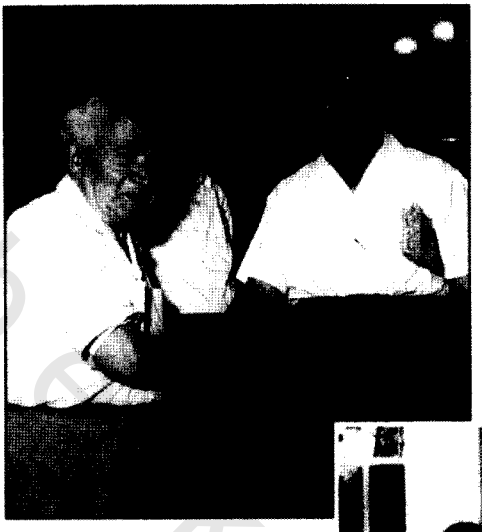

بن غـوريون (إلى اليـسـار) وإشكول "كـأب يطرده من عدن"
(فـريتـزكـوهين، المكتب الصـحـفي لحكومـة إسرائيل).

إشكول (إلى اليسـار) وجونسون ١٩٦٤
(إسرائيل صديقة هو المعنى الحقيقي للكلمة).

ناصر وعرفات. (الأهرام)

obeikan.com

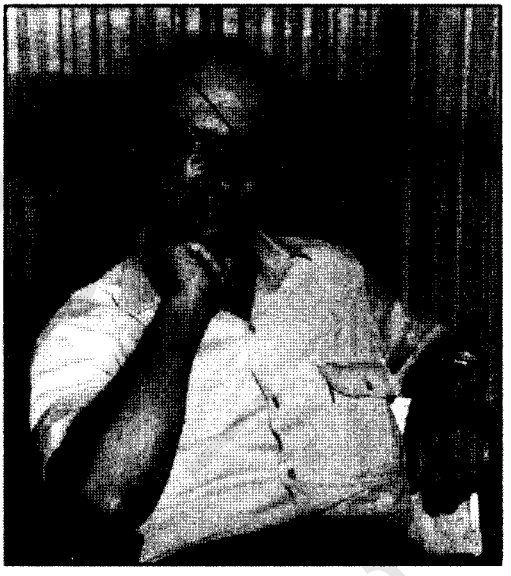

موشي دايان: "كذاب، متبجح، متآمر، المغنية الأولى في أوبرا، وموضع إعجاب عميق".
(فريتز كوهين، المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

من اليسار إلى اليمين: بارليف، رابين، وايزمن. (المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

من اليسار إلى اليمين: شارون، بيغن، يوفي (Yoffe) (موشي ميلفر، المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

- خروج قوات الطوارئ الدولية. الجنرال إندارجيت ريكهاي (Indar jit Rhkhye).

- مضائق تيران: سأل عامر: «كيف تستطيع قواتنا أن تشاهد ببساطة العلم الإسرائيلي يمر بهم؟»

المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل

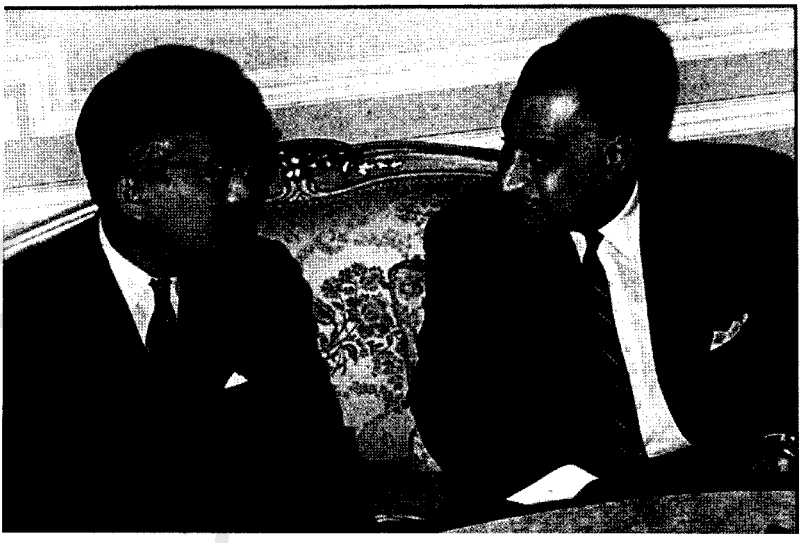

عبد الناصر إلى اليمين يخبر يوتانت: «يقول لي جنرالاتي بأننا سنربح الحرب، فماذا تقول لهم؟» (الاسوشيتيدبرس)

"في الانتظار" يقوم المدنيون الإسرائيليون بحفر الخنادق.

(إيلان بيرنز، المكتب الصحفي لحكومة سرائيل)

إيبان (في الوسط) في البيت الأبيض مع جونسون (إلى اليمين): «لن تكون إسرائيل وحدها ما لم تقرر هي ذلك».

إلى اليمين، الحسين بن طلال بن عبدالله، ملك الأردن. (سليمان مرزوق).

من اليسار إلى اليمن: إشكول، ألون، تل، غافيش (المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

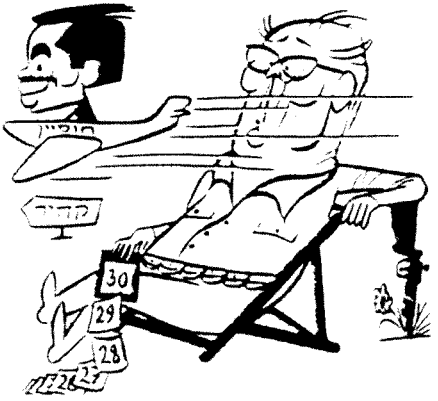

الحسين يحلق فوق إشكول في طريقه إلى القاهرة (معاريف، إسرائيل).

ناصر يسحق إشكول في السرير (معاريف، إسرائيل).

إشكول ينزع بتلات الزهرة قائلاً: «نعم، لا.. نعم، لا..» (معاريف، إسرائيل).

obeikandi.com

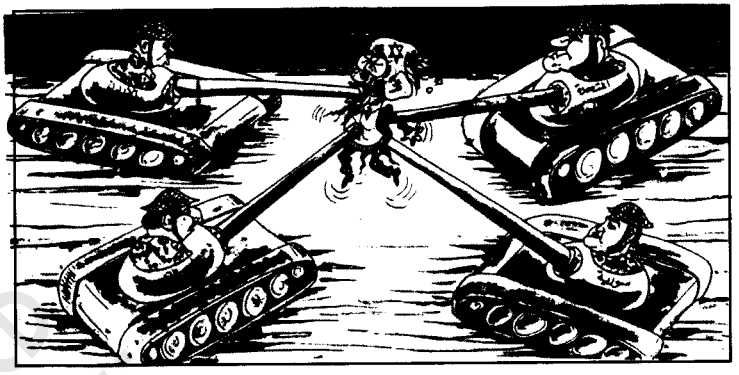

- دبابات مصرية، وسورية وأردنية ولبنانية تخترق إسرائيل (الحياة اللبنانية).

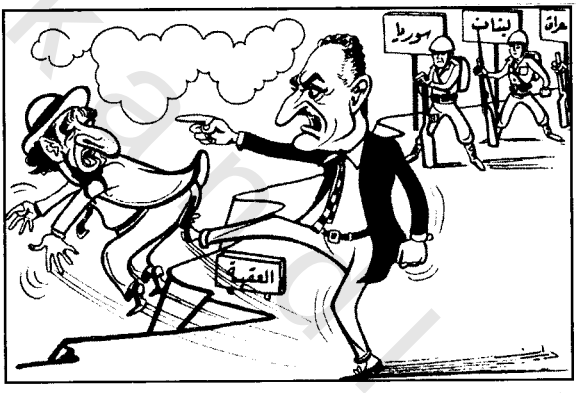

- ناصر مدعوماً من الدول العربية يركل إسرائيل بقدمه إلى خليج العقبة. (الجريدة اللبنانية).

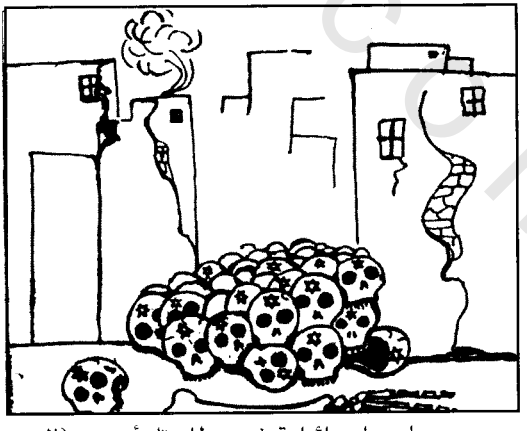

-جماجم إسرائيلية في حطام تل أبيب. (الجندي العربي، سوريا).

الوحدة العربية: رئيس الوزارة المصري صدقي سليمان (يلبس نظارات شمس) يحي الوفد السوري (من اليمين إلى اليسار) الجندي، رئيس الأمن؛ وسويداني رئيس الأركان؛ وزعين، رئيس الوزراء؛ وماخوس، وزير الخارجية.
(بإذن من البرفسور إتياما رابينوفيتش)

خير الأصدقاء، أعداء ألداء: عامر (إلى اليسار) وناصر. (الأهرام، مصر).

كان لهذه التحذيرات- التي أكدتها تفجيرات في سفارتي أمريكا في بيروت وجدة- أثر قوي على راسك. وعلى الرغم من أنه مازال مصمماً على «المضي قُدماً بكل قوته» في خطة ريغاتا، فقد زال لديه كل وهم بشأن الثمن المترتب عليها. فقد أسر إلى وزير خارجية بلجيكا، هارمل (Harmel) قائلاً: «ما لم نبين للإسرائيلين أننا مستعدون في التحليل الأخير للمسألة لاستخدام القوة لإبقاء المضائق مفتوحة، فإننا لن نقدر على إقناعهم بالامتناع عن أخذ القانون بأيديهم. ومن جهة أخرى، إذا ما ألزمنا أنفسنا بذلك الآن وبهذه الطريقة فإننا لن نفقد مرونتنا في البحث عن حل سلمي فحسب، بل إن ذلك يضعنا في مواجهة عسكرية مباشرة مع ناصر».

ونتيجة لذلك، ضاعف راسك جهوده الدبلوماسية في مجلس الأمن مؤيداً لقرار دانماركي بدعم فكرة إيقاف السلوك العدائي التي طرحها يوتانت والبحث عن حل سلمي. وعمل غولدبيرغ جاهداً لحشد التأييد لهذه المبادرة، وبدا له أنه حقق تقدماً عندما سلمت مصر مسوّدتها التي تندد بالعدوان الإسرائيلي وتدعو إلى إحياء الهدنة. والفرصة الوحيدة لتحقيق اختراق إيجابي تكمن في التوصل إلى تفاهم ضمني مع السوفيات. عبر فيديرينكو (Federnko) شخصياً وبصورة سرية عن اهتمامه في منع الأعمال العدوانية. كانت السفن السوفياتية الموجودة في البحر المتوسط تقوم (بعرض عسكري)، كما قال. ومع ذلك ظل كلامه قاسياً يهاجم الأمريكيين لتنكرهم لحق مصر في فرض الحصار في حين أنهم هم أنفسهم يفرضون الحصار على كوبا و«يغرقون فيتنام بالدم». (٣٢)

تجاوزت الإدارة الأمريكية، لدى خيبة أملها في الأمم المتحدة، فيديرينكو وتوجهت مباشرة إلى رؤسائه في الكرملين. فأكدت رسالتان، أرسل الأولى منهما الرئيس جونسون إلى الرئيس كوسيجن، وأرسل الثانية راسك إلى غروميكو، تكمن المصلحة المشتركة بين البلدين في تأمين حرية المرور وتجنب نشوب حرب، ولكنهما وضعتا اللوم على عبد الناصر في فرض الحصار على المضائق وتعريض السلم العالمي للمخاطر. استخدم الأمريكيون سياسة «العصاة والجزرة». فكان تهديد إسرائيل

بالقيام بضربة استباقية هي العصا؛ إذ قالوا: «لا نظن أن إسرائيل سوف تتراجع... ولا ينبغي أن نطلب منها ذلك». ثم قدموا جزرتهم وهي: عقد اتفاق بشأن وقف الأعمال العدوانية، يتبعه مؤتمر قمة للقوى العظمى إما في نيويورك أو في موسكو.(٣٣) كان البيت الأبيض مازال ينتظر جواباً على مبادرته هذه عندما علّق مجلس الأمن اجتماعاته بعد جلسة وصفت «بأنها حارة أكثر مما هي مضيئة». ولن يعود إلى الاجتماع إلا بعد ٤٨ ساعة، يوم الإثنين في الخامس من يونيو (حزيران).

ومهما كانت المتابعات الدبلوماسية في الأمم المتحدة ومع السوفيات قاسية فهي محدودة القيمة بالمقارنة مع المباحثات المباشرة مع الخصمين نفسيهما. إذ يمكن تحقيق مكاسب أكبر بإعادة فتح قنوات مباشرة مع مصر. فجرت أول محاولة في هذا الاتجاه في الأول من يونيو (حزيران) قام بها تشارلز يوست (Charles Yost) خبير شؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية، الذي وصل القاهرة لمساعدة نولت (Nolte). أجرى بوست اتصالاً مع معرفته القديمة، محمود رياض، الذي وافق على لقائه في بيته.

تكلم وزير الخارجية أكثر من تسعين دقيقة «بعاطفة جياشة ومرارة شديدة غير مألوفين عنه»، شاجباً بقسوة سياسة الولايات المتحدة (المؤيدة لإسرائيل تأييداً منقطع النظير) وشاجباً إسرائيل نفسها «ومعاملة الصهاينة للاجئين الفلسطينيين التي تُدرَّس لكل طفل في المدارس، الأمر الذي يجعل القضية حية أبداً».

وأوضح قائلاً: إن عبد الناصر لا يستطيع أن يفقد ماء وجهه بالتراجع عن الحصار، وسوف يقاتل كل من يحاول كسر الحصار. وعلى الرغم من أن جنرالاته يضغطون عليه للبدء بالهجوم، إلا أنه يفضل الانتظار حتى تقوم إسرائيل بالضربة الأولى، ومن ثم يقوم بتدميرها في الصحراء. وطرح رياض فكرة هي أن حرباً قصيرة يتبعها وقف إطلاق نار تفرضه الأمم المتحدة، يمكن أن يفتح الطريق المسدود. ثم يتقدّم الطرفان إلى تسوية واقعية، يعود بموجبها اللاجئون، وتجد إسرائيل مصادر نفطية بديلة. وقال: «ليست المسألة اقتصادية، بل نفسية محضة».

لم تبشر المحادثات بالخير بحيث يستمر الحوار مع القاهرة. إذ كتب يوست في تقريره يقول: إنه لا توجد هناك أية علامة على «أن العرب منهكون من المعركة ولا يوجد لديهم أي استعداد للتوصل إلى تسوية بشأن تيران». وتابع القول: «وبما أن الأفق المحصور بين قيام إسرائيل بالهجوم أو استخدام الغرب للقوة في المضائق يبدو قريباً جداً، فإن هياج العرب ووحدتهم سوف تتصاعد بدلاً من أن تخبو». وحذر من أن المصريين سوف يدافعون عن الحصار بالقوة. ولذلك رأى يوست أن تؤقلم الولايات المتحدة نفسها مع وضع عبد الناصر الجديد. وسوف تتعلم إسرائيل كيف تعيش دون إيلات كما كانت قبل العام ١٩٥٦ . (٣٤)

بيد أن لقاء يوست ورياض لم يكن سوى بداية لجهود واشنطن للوصول إلى عبد الناصر. وقد تضاعفت هذه الجهود على مستوى سري مختلف عن طريق روبرت ب. أندرسون (Robert B.Anderson) نفسه الذي حاول التوسط لعقد سلام مصري - إسرائيلي سري في العام ١٩٥٦ . كان صاحب النفط التكساسي الأصل على اتصال هاتفي مع الرئيس منذ نشوب الأزمة. وأثناء لقاء الوداع مع السفير المصري كامل في ٢٤ مايو، اقترح جونسون أن يقوم أندرسون برحلة سرية إلى القاهرة. وكان الجواب إيجابياً، وانطلق أندرسون برحلته واثقاً بالاعتقاد القائل إن الأزمة حدثت في الغالب بسبب الإشكالات المالية التي تعانيها مصر، وأن حلها يكمن في دعوة عامر إلى الولايات المتحدة. حيث يمكن التوصل إلى اتفاق تقدم بموجبه الولايات المتحدة القمح لمصر مقابل اعتدال مصر.

وصل أندرسون إلى القاهرة مساء ٣٠ مايو ليجد عبد الناصر مسترخياً واثقاً من نفسه، مدعوماً بزيارة الملك حسين. أصر عبد الناصر أن إسرائيل قد حشدت ١٣ لواء على الحدود السورية وسوف تهاجم في النهاية، ولكن لدى مصر «خططاً محكمة» للرد. والخوف الأساسي هو أن تكون سوريا مستاءة من المعاهدة المصرية - الأردنية الجديدة، أو أن تقوم إحدى المنظمات الفلسطينية بإشعال الحرب التي تجد مصر نفسها ملزمة للتدخل فيها. ولدى امتداح أندرسون لعبد الناصر بقوله: إن

جميع المفكرين في مختلف أنحاء العالم العربي ملتزمون بعبد الناصر بقدر ما هم معارضون إلى مفهوم السلام، قال عبد الناصر مازحاً: «إني متأثر بنوعية الناس الذين يؤكدون هذا الالتزام أكثر من تأثري بالالتزام نفسه».

اتجه البحث في النهاية إلى تخفيف حدة الأزمة الحالية. قلل عبد الناصر من أهمية فرص نجاح تحكيم تقوم به الأمم المتحدة أو محكمة العدل الدولية، ورفض الوساطة الأمريكية المباشرة. واقترح، بدلاً من ذلك، وسيطاً محايداً، ولكنه لم يرغب بتحديد هوية هذا الوسيط. وفيما يتعلق بدعوة عامر إلى واشنطن، اقترح ناصر إرسال نائب الرئيس زكريا محيي الدين الذي سمي حديثاً، «قائداً لقوى المقاومة الشعبية» بدلاً منه. وافق أندرسون، واقترح زيارة متبادلة يقوم بها همفري، نائب الرئيس الأمريكي، إلى مصر.

نتج عن المحادثات رسالة من عبد الناصر أجاب فيها أخيراً على طلب جونسون الذي قدمه قبل أحد عشر يوماً. ولكن لهجة الكتاب لم تكن معتدلة إذ كرر الزعيم المصري اتهام إسرائيل بالتخطيط لغزو سوريا، وبانتهاكها الدائم لقرارات الأمم المتحدة، وبارتكابها العدوان. وبالمقابل، أكد أن الإجراءات التي اتخذتها مصر في المضائق كانت «شرعية»، وأنه لم يكن معقولاً أن تعبرها الشحنات الإسرائيلية. ومع ذلك، وبرغم كل هذا العناد، اختتم الرسالة بقبول دعوة محيي الدين إلى واشنطن والترحيب بنائب الرئيس الأمريكي إلى القاهرة.

هذا ما كان يسعى إليه البيت الأبيض، فتح الباب أمام الحوار. فسارعت مجموعة مراقبة الشرق الأوسط إلى البدء بالإعداد للقاء محيي الدين، بما في ذلك إعداد أفكار لتسوية إسرائيلية - عربية شاملة، مع بعض «اللمسات الشرقية» ترضي الأناس عند عبد الناصر. اتخذت احتياطات لوصول الفريق المصري المبكر في ٥ يونيو (حزيران). (٣٥)

كانت السياسة الأمريكية تسجل تقدماً -في التخطيط لخطة ريغاتا، وفي حث مجلس الأمن، وتجديد الروابط مع ناصر، برغم وجود بعض العقبات الهائلة. إذ ما زالت هناك أسئلة وأجوبة كثيرة حول أعقد القضايا- وهي إسرائيل.

رحبت واشنطن بتسلم موشي دايان منصب وزير الدفاع ترحيباً متناقضاً. ففي حين أنها لم تكن «متفائلة كثيراً» كان باربر يعتقد أن تعيين الجنرال السابق في هذا المنصب ربما يدعم إحساس بلاده بالأمن: «إذا ما استطعنا الحفاظ على الزخم الدبلوماسي... فإن فرص النجاح مع الإسرائيلين تتحسن أكثر من ذي قبل». وأشار راسك بحذر أكثر إلى أن دايان لم يكن ملتزماً سياسياً بإشكول ولا بين غوريون، وبالتالي يتوقع أن يختط لنفسه طريقاً مستقلة. وقال لسفرائه ناصحاً: لا يوجد هناك دلائل -وكرر كلمة «لا»- على انفجار الأعمال العدوانية وشيكاً أثناء تقدم المناورات السياسية، «بيد أن الآخرين كانوا أقل تفاؤلاً. فقد تنبأ لوشيس باتل (Lucious Battle) قائلاً: «إن تعيين دايان هذا يزيد من احتمال اتخاذ قرار نهائي باللجوء إلى العمل العسكري».

ويظل السؤال الهام: «كم سينتظر الإسرائيليون؟ فهل يرجئون إطلاق النار إلى الشهر الذي يقدر مخططو ريغاتا تنفيذ الخطة فيه، أو أنهم كما تعتقد المخابرات الأمريكية، سيبدؤون الحرب في غضون أسبوعين؟

ورغم أن جونسون ما زال محتفظاً بإحساس أكيد بأن الإسرائيليين سوف يتصرفون من تلقاء أنفسهم، ظل مصمماً على كسب أكبر وقت ممكن للدبلوماسية. وكخطوة مناظرة لزيارة محيي الدين إلى واشنطن، طلب إلى هاري ماكفيرسون (Harry Mcpherson) مستشار البيت الأبيض، الذي كان في فيتنام التوجه إلى إسرائيل في ٥ يونيو (حزيران). وخوله بعقد لقاءات صريحة عالية المستوى مع مبعوث إشكول، مئير أميت (Meir Amit). (٣٦)

إن أميت هذا المكتنز الجسم المفعم بالنشاط (والذي كان مازال بعد خمسة وثلاثين عاماً مديراً لبرنامج السواتل الإسرائيلية) البالغ من العمر ٤٤ عاماً والذي كان قد خدم كرئيس عمليات في الهاغناه في العام ١٩٥٦ ، تحول أخيراً من الميدان إلى التجسس.

في العام ١٩٦١، عُين بعد حصوله على الدرجة الجامعية الأولى من كلية الأعمال في جامعة كولومبيا رئيساً لمخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي، وبعد سنتين عين مديراً للموساد. لقد أبعد جهاز الموساد عن تصيد النازيين، ووجهه إلى تعقب برنامج الصواريخ المصرية، وكلف إيلي كوهين بمهمة التجسس الشهيرة -وخسره- وحقق أجرأ إنجاز له في أغسطس (آب) من العام ١٩٦٦ بانشقاق طيار ميغ -٢١ عراقي وهربه بطائرته إلى إسرائيل. وكان قد أقام روابط مع الجنرال المصري عزم الدين محمود خليل - أملاً في تخفيف حدة الأزمة في سيناء - ولكن دون جدوى. وبعد ذلك ساعد رابين وياكوف هيرتزوغ (يعقوب) (Yaakov Herzog) في صياغة التحذيرات الموجهة إلى إيبان وهو في واشنطن، مقتنعاً بأن على إسرائيل أن تتصرف على الفور وما إن تخوض الحرب حتى تربحها. وطمأن إشكول بثقة قائلاً: «إذا بدأ عبد الناصر بالضربة الأولى، فهذا يعني أنه انتهى».

كان أميث معروفاً تماماً في واشنطن حيث لم يكن لشهرته هناك أي معنى. قال وولت روستو للرئيس الأمريكي واصفاً أميث: «من مواليد إسرائيل... وهو أكثر تراخياً، وأقرب للطبيعة العادية من هارمان وإيبان اللذين كانا يثبتان باستمرار مصداقيتهما». وأضاف قائلاً أيضاً: «ومن الصعب إمساك هؤلاء الأولاد إسبوعاً آخر من الآن». وكانت اتصالاته واسعة في ال CIA وخصوصاً مع جون هادن (Jahn Hadden) رئيس مكتب تل أبيب في وكالة المخابرات المركزية. وكان هادن قد أيقظ أميث في بداية الأزمة الساعة ٢,٣٠ صباحاً ليحذره قائلاً: «إن أطلقتم الرصاصة الأولى، فذلك شأنكم وأنتم المسؤولون وحدكم».

كانت مهمة أميث الأولى هي التأكيد على التمسك بذلك التحذير. ومهمته الثانية هي إقناع الأمريكيين بأنه «لو سمح لإسرائيل أن تقوم بالعمل القذر قبل عشرة أيام لما كان هناك خطر من تورط الولايات المتحدة، أما الآن، إذا لم تشن إسرائيل الحرب، فإن الولايات المتحدة هي التي ستشنها لإنقاذ ما يتبقى من الشرق الأوسط.» وسيقول أميث: «إسرائيل لا تريد أن يحارب الأمريكيون عنها.

فهنا ليست فيتنام، بل تريد فقط منع السوفيات من التدخل، وتقديم الدعم السياسي لإسرائيل في الأمم المتحدة، وإرسال شحنات أسلحة على وجه السرعة. حاول إشكول من التقليل من أهمية مهمة أميث واصفاً إياها باليديشية «فانتوفلاش (Fantoflash)» (أي شبشب منزلي)، ولكن الرسالة التي حملتها مهمته كانت خطيرة: «دم إسرائيل في ضمير أمريكا».

استاء أميت، لدى مغادرته إسرائيل متخفّياً في٣١ مايو (أيار)، إذ وجد على متن طائرته عدداً من الشخصيات الإسرائيلية البارزة الذين كانوا هاربين، على ما يبدو. التقى في واشنطن بجيمس عيسى أنغلتون (James Jesus Angleyon) ضابط الارتباط مع الموساد منذ زمن طويل بحيث صار يعرف بـ «أعظم صهيوني في الـ CIA».

كان أنغلتون في نظر أميت أكثر رغبة في القتال من معظم الجنرالات الإسرائيليين، إذ أصر أن السوفيات مازالوا يخططون لهذه الأزمة منذ سنين وأن على جونسون أن يرحب سراً بمبادرة إسرائيلية لإحباط السوفيات وخططهم. وقال: «إن خطة ريغاتا لن تغادر مكانها». وطرح ريتشارد هيلمز، أحد معارف أميت، آراءً مماثلة، إذ قال: «الكلمة الأخيرة ينبغي أن تأتي من جونسون، أو راسك أو ماكنمارا».

بقي اجتماع واحد في مقرالـ CIA مع ثلاثين خبيراً في شؤون الشرق الأوسط الذين فتحوا دفاترهم على تقديراتهم للقوات العربية، وتبين أنها تتفق كلياً مع تقديرات إسرائيل. علق أميت قائلاً: «الجو متفجر جداً ولكنه مفعم بالإرادة الطيبة»، مقتبساً عبارة جاك سميث، رئيس الدائرة الذي قال له: «إنك تعض المرتدين». أما النقاش الجوهري، فمازال هناك، مباشرة مع ماكنمارا.

يعرف ماكنمارا الأستاذ السابق في كلية الأعمال في جامعة هارفارد ورئيس شركة فورد ومهندس الكثير من تورط أمريكا في فيتنام، بسلوكه البارد وتصرفه المنهجي. استقبل ماكنمارا أميت بقميصه، دون ربطة عنق ودون معطف استقبالاً حاراً.

وأرسل بتحياته إلى موشي دايان قائلاً: «ستنتهي الحرب في يومين؛ وستكون خسائر إسرائيل فادحة ولكنها أقل من خسائرها في العام ١٩٤٨». ثم عرض طلب إسرائيل دعماً سياسياً وعسكريا أمريكاً، ثم قال أميت، محاولاً صرف انتباه مضيفه عن مسألة الضربة الاستباقية، إنه عائد بتوصيات بشأن الحرب. «أقرؤها لك بصوت مرتفع وواضح». وكان جواب ماكنمارا ببساطة: «كان ذلك مساعداً لنا تماماً».

تبين سجلات أميت أن الرئيس جونسون جاء إلى الاجتماع مرتين، وكان في كل مرة يحاط علماً بما جرى فيه. واستنتج رئيس الموساد أن الرئيس الأمريكي ووزير دفاعه لم يقولا لإسرائيل بصراحة: «لا تذهبي إلى الحرب». ولكن ماكنمارا اعترض فيما بعد على هذا الاستنتاج قائلاً: «لا أصدق أنه كان يعتقد ذلك فنحن ضد الضربة الاستباقية بصورة مطلقة كنا نخشى أن الضربة الاستباقية، ربما تؤدي بالضرورة، بتحريض السوفيات على التدخل، إلى التدخل الأمريكي لإنقاذ إسرائيل». ولكن أميت قد لحظ انقساماً بشأن خطة ريغاتا في البيت الأبيض، وأن البيت الأبيض يرفض مساعدة إسرائيل عسكرياً، فيما عدا تزويدها بأقنعة الغاز والأدوية. فإذا ما كانت غاية جونسون من مجاملة أميت أن يهدئ من مخاوف إسرائيل ويشتري مزيداً من الوقت للدبلوماسية، فإن هذه الغاية قد أحبطت.

إذ سيعود أميت مقتنعاً أن إسرائيل لم تكسب شيئاً من الانتظار ما خلا مضاعفة خسائرها. (٣٧)

وتوصل أبي هيرمان (Abe Herman) إلى النتيجة ذاتها، على مضض، بعد حوالي ثلاثة أسابيع من الجهد المكثف للتوصل إلى طريقة عمل مع الولايات المتحدة.

استدعي السفير إلى القدس للتشاور، وليطرح وجهة نظره إلى جانب وجهة نظر أميت.ومع ذلك توجه إلى راسك، قبل مغادرته واشنطن، للمرة الأخيرة عساه يحصل على ضمانات ملموسة للعمل العسكري. اعتذر وزير الخارجية الأمريكي قائلاً: إنه لا يستطيع تقديم ضمانات أكثر من التي تلقتها إسرائيل، وحذر مرة أخرى من القيام

بضربة استباقية. واغتنم الفرصة ليعلن عن حقيقة زيارة محيي الدين المقبلة إلى واشنطن، ووعده بأن يبقي إسرائيل «في الصورة». كان هارمان مكتئباً حزيناً لسماعه هذا النبأ. فالإدارة سوف تفتح مفاوضات مطولة مع مصر، وسوف يؤجل تنفيذ خطة القافلة بالتأكيد. وسأل قائلاً: «هل على إسرائيل أن تتحمل عشرة آلاف إصابة قبل أن تعترف الولايات المتحدة أن العدوان قد حصل؟» ثم قال: «هل ستقوم مصر بالهجوم أولاً؟ لقد قامت به إسرائيل». (٣٨)

قوة الدفع الدايانية:

ربما يعود أميث إلى بلد مختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التي غادرها قبل ثمان وأربعين ساعة. إذ بدأ جو الهلع يتبدد ويحل محله إحساس متنام بالاتزان ورباطة الجأش، إن لم يكن إحساساً بالثقة. ففي الجيش، بدأ الجنرالات يعتبرون فترة الانتظار (بالعبرية Ha-Hamatan) مزيجاً من البركات، إذ أتاحت للمصريين فرصة توضيع قواتهم في خطوط متقدمة التي - في حال اختراقها - ستترك معظم سيناء مكشوفة لا يمكن الدفاع عنها. كما أن نسبة كبيرة من سلاح الجو المصري قد أخذ مواقع متقدمة شرقاً بحيث أصبح ضمن مرمى القاذفات الإسرائيلية. وفي هذه الأثناء، استخدم جيش الدفاع الإسرائيلي الزمن لاستكمال استراتيجيته الهجومية وتدريب عناصره وتوضيعهم في المواقع المناسبة. والتنقلات الاضطرارية للجنود التي شكى منها شارون قد انتهت. وقال شلومو ميروم (Shlomo Merom) أحد ضباط المخابرات: «لقد ثبت الجيش وأقفل عليه ولم يبق إلاَّ ضغط الزناد».

ومن الناحية السياسيّة، استقر الوضع في إسرائيل؛ فالمناورات والصفقات المضنية التي كانت نشطة في الأسابيع السابقة قد مضت وأسفرت عن حكومة وحدة وطنية ضمت الأحزاب المعارضة الكبرى. وعقدت أول اجتماع لها يوم الخميس ليلاً في الأول من يونيو (حزيران). وكان مناحم بيغن يشغل فيها منصب وزير بلا حقيبة وألقى في ذلك الاجتماع خطبة أرجوانية منمقة حول الأمة اليهودية والمحن القاسية التي تنتظرها. وكان رد إشكول عليها: «آمين.آمين». (٣٩)

ثم اتخذت الحكومة أول قرار واقعي لها يدعو إلى عقد لقاء مشترك مع هيئة الأركان العامة ولجنة الدفاع الوزارية في الساعة ٩,٢٥ صباحاً في غرفة العمليات.

كانت هذه التحولات نتيجة لعوامل عديدة - الضغط الجماهيري الشعبي، التعبئة المحسَّنة، والإدراك الغريب بأن إسرائيل تقف وحدها. ومع ذلك لم يتمحور اهتمام الشعب حول أحد مثلما تمحور حول صعود فرد واحد هو وزير الدفاع الجديد، موشي دايان.

كتب ميشيل هاداو (Michael Hadow) عن محادثاته الكثيرة مع دايان: «إنه يستمتع بطرق أفكار جديدة للنقاش، ومع ذلك يجده المرء يجادل في اتجاهات متناقضة يوماً بعد يوم». والواقع أن دايان كان رجل تناقضات كلاسيكي: مشهور كمحارب، واعترف باحترامه العميق للعرب بمن فيهم أولئك الذين هاجموا قريته ناحال (Nahal) في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، والذين ضربوه وتركوه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وهو شاعر، وكاتب قصص للأطفال، واعترف علناً بأنه رُزق بأطفال، وكان مغازلاً مشهوراً، كذلك. محباً للأرض وجعل من نهبها هواية، وجمع مجموعة آثار شخصية هائلة، شديد الانضباط بالنظام العسكري، نزّاعاً إلى احتقار القانون.

وقال عنه أحد زملائه في الصف: «كان كاذباً، مدبراً للمكائد، مغروراً يحب إبداء الإعجاب به - ورغم ذلك كله كان موضع إعجاب عميق».

كذلك الآراء فيه متناقضة. فالمعجبون به مثل مئير أميث يرونه: «أصيلاً، جريئاً، ذا عزم وتصميم. قائد يُشع سلطة وقيادة، ذو غرائز رائعة تقوده دائماً إلى التوفيق والنجاح». وهناك آخرون كثر يرون فيه العكس تماماً، من بينهم جدعون رافائيل: (Gideon Rafael) «إنه يهز القارب بتكتيك محبب ليس ليقلبه، بل ليحرفه بحيث يجعل الربان يفقد سيطرته عليه، ويجعل الركاب غير المرغوب فيهم يقعون من القارب إلى البحر». وأشار إشكول إلى دايان في جلسة خاصة واصفاً إياه بـ «أبو جلدة «لص عربي أعور سفيه».

ومع ذلك لا يستطيع أحد، سواه من المتعصبين له أو ضده أن يطعن في ثراء خبرته. بدأت خبرته بخدمته كقائد وحدة الفدائيين البريطانية الأسطورية «أورد وينغيت (Orde Wingate)، ومن ثم كقائد في الهاغناه، أدخل في سجن بريطاني، بسبب ذلك لمدة سنتين. وأطلق سراحه في العام١٩٤١. كما خدم كعنصر استطلاع لهجوم الحلفاء ضد الفيشيين الفرنسيين في سوريا ولبنان حيث فقد عينه اليسرى في الحرب واكتسب علامته المميّزة «الرقعة السوداء على عينه». وقاد فيما بعد أثناء حرب ال ٤٨ وحدات الخط الأمامي في اللد والقدس ووادي الأردن. لوحظت فطنته السياسية إلى جانب مواهبه العسكرية، في وقت مبكر بحيث عين، بعد الحرب، مندوباً لمفاوضات الهدنة في رودس (Rhodes). وبعد أربع سنوات، في الثامنة والثلاثين من عمره أصبح دايان رئيساً لهيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيلي، وأخذ يتابع سياسة الانتقام التي أدانها معظم العالم، ولكنها جعلت شعبيته في إسرائيل تتصاعد -ثم تعززت أكثر بفضل أدائه المتألق في حملة السويس. وبعد ذلك انضم إلى حزب ماباي أولاً، ثم إلى حزب رافي. كان سياسياً ذكياً غامضاً- قريباً من بن غوريون ولكنه لا يدين له، معارض لإشكول ولكنه لا يحقد عليه ولا يعانده.

كان فريد الأداء الفردي (كما قال عنه رفائيل) يحترم من جهة، ويخشى من جهة ثانية لبراعته السياسية وأعماله المثيرة. (٤٠)

كان لعودته إلى العمل العام نتائج فريدة في تهدئة العسكريين والمدنيين على حد سواء وفي تعزيز مجلس الوزراء في ما ينتظره من قرارات عالية الأهمية. قال فيه غيداليا غال (Gedalia Gal) نائب قائد كتيبة مظليين: «كان تعيين دايان متنفساً للهواء الطازج... لأنه يمثل التغيير... ولأن الشعب كان قلقاً ليس لأننا لم ندخل الحرب، بل لأن الحكومة كانت، على ما يبدو، تخشى الحرب».

كان أثر قوة الدفاع الدايانية هذه جليّاً في الاجتماع الأول للحكومة الائتلافية، يوم الجمعة ليلاً، حيث كانت الهيمنة لوزير الدفاع. وقال شارحاً الموقف: «أمام إسرائيل خياران، إما القبول بالحصار كأمر واقع، ونتخذ مواقع دفاعية دائمة -

وهذا خيار غير قابل للبقاء، وإما أن نضرب المصريين على الفور». وأكد أن «فرصة البلاد الوحيدة لكسب الحرب هي بأخذ زمام المبادرة والقتال وفق تصاميمنا نحن». ثم أردف يقول متفائلاً: «إذا ما افتتحنا نحن الحرب وعبرنا سيناء بدباباتنا، فإنهم سيقاتلون وفق حربنا. بل أكثر من ذلك، تظل لدينا فرصة الاحتفاظ بقوات محدودة على الجبهات الأخرى». ثم خفض صوته، وشحب وجهه، لدى قوله: «ومع ذلك، ليكن الله في عوننا،إذا ما قاموا هم بالضربة الأولى. عندها لن نخسر قدرة الضربة الأولى فحسب، بل يتوجب علينا أن نقاتل حربهم ووفق خططهم... وعلى أرض حيوية بالنسبة لنا». (٤١)

كان دايان يتحدث وكأن الحرب أمر مفروغ منه، ولكن إشكول كان مازال بحاجة إلى إقناع. إذ كان يعتقد أنه لو كان هناك حل دبلوماسي، فإن الخوف يظل يساور إسرائيل من السوفيات. وكان أحد الخبراء الإسرائيليين في سياسة موسكو الخارجية، وشيوعي متمرس نفاه ستالين إلى سيبيريا، هو بيرغر بازريلاي قد قال لمخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي، بأن الاتحاد السوفياتي سيستخدم كل نفوذه وقوته للاحتفاظ بموقع له في الشرق الأوسط. ولدى سؤاله بصورة محددة حول إمكانية تدخل السوفيات في الحرب، أجاب بيرغر بارزيلاي (Bergen Barzilai) «طبعاً سيتدخلون». ويبدو أن تقييم بيرغر قد تعزز ببرقية أخرى وصلت من كوسيغن إلى إشكول يحذره فيها من «أنه إذا ما أصرت حكومة إسرائيل أن تتحمل مسؤولية نشوب مواجهة مسلحة فإن عليها أن تدفع الثمن كاملاً لمثل هذا التصرف».

مازالت آمال إشكول مركزة على الأمريكيين، وعلى رغبتهم في دعم إسرائيل لدى محاولتها كسر الحصار، إن لم يكسروه بأنفسهم. ثم التفت إلى المخابرات العسكرية وطلب منهم أن يلتقطوا أية إشارة تفيد بأن البيت الأبيض سيدعم قيام إسرائيل بعمل عسكري من طرف واحد ومنفردة - ما يسمى «بالضوء الأخضر». من بين الأدلة التي جمعت إشارات صدرت عن جوزيف ألسوب (Joseph Alsop) محرر زاوية في مجلة النيوزويك، وعن تاونسندهوبيز (Townsend Hoopes) تنفي وجود

أية نية جادة لدى الولايات المتحدة لإعادة فتح المضائق، وتحث إسرائيل على فعل ذلك وحدها. ووفق ما ذكره أبي فينبيرغ (Abe Feinberg) فإن غولد بيرغ (Goldberg) قد أقنع جونسون بأن قيام إسرائيل بضربة استباقية هو السبيل الوحيد الممكن. وجاء في الملف أيضاً اتصالات جرى التقاطها تفيد بأن الزعماء العرب لم يعودوا يرون في فكرة «القافلة» تهديداً خطيراً. وبعد زيارة محيي الدين إلى واشنطن حذرت المخابرات من احتمال دعم الولايات المتحدة لإعادة إحياء نظام الهدنة ووضع قوات أمم متحدة في الأراضي الإسرائيلية.

حفزت هذه المعطيات مبادرة إسرائيلية هادئة أخرى في واشنطن. إذ أطلع إيفرون (Evron) الإدارة الأمريكية على سيناريو تقوم بموجبه سفينة شحن إسرائيلية باختبار الحصار. عندها تقوم مصر بإطلاق النار على الباخرة، فترد إسرائيل بمهاجمة شرم الشيخ، مسرّعة بذلك نشوب الحرب. وسأل: «هل ستنفذ الولايات المتحدة التزاماتها التي قطعتها على نفسها لإسرائيل في العام ١٩٥٧؛ هل ستصد السوفيات؟ «قال الوزير: إن خطة كهذه ربما تخدم أكثر المصالح الأمريكية مقابل المصالح العربية والروسية، وفي الوقت نفسه تلبي مصالح إسرائيل أيضاً. وإذا لم تطلق مصر النار على القافلة الدولية، كما تنبأت المخابرات الإسرائيلية، فإن قضية الحصار لن تُسوى. ومما أدهش إيفرون وإشكول أن روستو لم يرفض الاقتراح ولكنه مرّره إلى الرئيس، مع ملاحظة شخصية تقول: «أيا كان الرابح (في هذه الأزمة) فنحن الخاسرون بالتأكيد». (٤٢)

عززت هذه التطورات عزم إشكول على تنسيق تحركات إسرائيل مع الولايات المتحدة على أوثق مستوى ممكن. فسأل دايان وإيبان في آخر ليلة الخميس: «ما الذي ينبغي أن نفعله كي لا يقول لنا الأمريكيون، «ولكنكم وعدتم بالانتظار،؟» لم يعد لدى وزير الخارجية جواب لأنه هو أيضاً قد يئس من الخيارات الدبلوماسية. ولدى سؤاله من قبل مراسلي الصحف عن طول المدة التي ستنتظرها إسرائيل، أجاب قائلاً: «يمكنكم حذف السنوات والشهور من مفرداتكم... فإسرائيل ستفتح المضائق

وحدها إن لزم الأمر، ومع الآخرين إن استطعنا». وقد قال لدايان الآن «إن هناك ساعتين، واحدة في واشنطن تتك باتجاه القافلة، والثانية في إسرائيل تتك باتجاه الحرب. ودقاتهما غير متناسقة». لم تثر هذه الملاحظة أي نقاش لدى دايان الذي كان منذ زمن يفرّق بين القضية السياسية المتعلقة بإعادة فتح المضائق والضرورة الإستراتيجية لتأكيد دفاع إسرائيل وضمانه. والسؤال الوحيد الذي كان يؤكده هو: «ماذا تنوي الولايات المتحدة فعله بشأن التهديد العسكري العربي؟».

واجه هذا السؤال نفسه أعضاء هيئة الأركان العامة ولجنة الدفاع الوزارية صباح اليوم التالي في غرفة العمليات. إذ افتتح بارليف الاجتماع بقوله: «هذه ساعة مصر الكبرى. متنبئاً بأن الجيوش العربية المجتمعة تستطيع دحر إسرائيل إلى خطوط التقسيم بموجب قرار الأمم المتحدة، وربما أكثر وكان موضوعه الرئيس هو الأمريكيون، قائلاً: «إننا نرى أن الولايات المتحدة لا تنوي فتح المضائق بالقوة ولا أن تتخذ خطوات ملموسة في المستقبل القريب لحل المشكلة بين مصر وإسرائيل. ومع ذلك، نحن نعتقد أن الولايات تتفهم حاجتنا لشن حرب، وأعتقد أنه لا بد لنا من أن نحارب».

التقط رابين الإشارة، فقال: «لقد دخلنا وضعاً لا رجعة فيه. وهدفنا هو توجيه ضربة قاضية لعبد الناصر وأعتقد أن ذلك سيغير النظام كله في الشرق الأوسط. والأكثر من ذلك، إذا ما قمنا بالضربة وحدنا -أي عدم تلقينا مساعدة من أحد- سيكون لهذه الضربة انطباع أكبر من الانطباع الذي أحدثته حرب العام ١٩٥٦». وشرح فكرته قائلاً: إن ما من أحد في هيئة الأركان يريد الحرب، ولكن تدمير عبد الناصر هو خيار إسرائيل الوحيد لتبقى على قيد الحياة».

ثم اندفع الجنرالات يقدم كل منهم خطته للحرب، بدءاً من قائد سلاح الجو موتي هود (Motti Hod) الذي ادعى أن سلاح الجو الإسرائيلي يعرف مرابض جميع الطائرات النفاثة المصرية، وأنه يستطيع القضاء على معظمها وهي على الأرض،

وذلك بفضل القيام بألف غارة يومياً. ومع ذلك لفت الانتباه إلى طلعات العدو الاستطلاعية فوق إسرائيل، وحذر من مخاطر التواني قائلاً: «نحن جاهزون للبدء بالعمليات العسكرية فوراً». واختتم كلامه بقوله: «لا حاجة لنا بالانتظار حتى ٢٤ ساعة».

تلاه في الحديث شايكي غافيش (Shaike Gavish) طارحاً ما لديه من خرائط لمواقع انتشار المصريين في سيناء، متتبعاً الحشد من فرقتين إلى ستة كلها قد أخذت مواضعها تماماً. وقال: «إذا ما هاجمنا شرم الشيخ مباشرة بعد الإغلاق، فإنها ستكون نزهة».

أما أريك شارون (Arik Sharon) فقد صرح قائلاً إن: «الجيش مستعد وجاهز أكثر من أي زمن مضى لصد الهجوم المصري و.... إبادة الجيش المصري ومسحه عن وجه الأرض. وسوف تمر الأجيال قبل أن تهددنا مصر ثانية».

انتهت الإيجازات، وجاء دور الوزراء. فسأل حايم موشي شابيرا «ماذا بشأن قصف مدننا؟» وأيده زالمان أران بطرح هذا السؤال، قائلاً: «وماذا بشأن خسارتنا في الطائرات؟» وتساءل العديد من الوزراء قائلين طالما أن القوات المصرية موجودة في سيناء الآن فلماذا لا ننتظر أسبوعاً أو اثنين؟».

فرد هود قائلاً: «خير دفاع عن مدننا هو تدمير سلاح الجو المصري». وطمأن الوزراء بأن خسائر الطيران الأمريكي في فيتنام بلغت ١٤٪، أما خسائرنا ستكون أقل».

طرحت أسئلة أخرى وأجيب عنها كلها في حينه إلا سؤالاً واحداً، طرحه وزير الصحة إسرائيل بارزيلاي، هو: «ولكن إذا ما كانت الضربة الأولى ناجحة جداً بحيث تضطر الاتحاد السوفياتي إلى التدخل ما هو موقفنا؟».

وقف هود، ولم ينبس ببنت شفه. حاول رابين إنقاذه قائلاً لبارزيلاي إنه ليس من المحتمل أن يتورط السوفيات عسكرياً، وبدلاً من ذلك سوف يسعون بالتعاون مع الولايات المتحدة إلى وقف القتال.

obeikandl.com

كان الجو في غرفة العمليات -حاراً، مشبعاً بدخان السجائر- قد أصبح لا يطاق، كما أن صبر الجنرالات قد نفد. هب أفراهام (Avraham) واقفاً على قدميه صائحاً: «مازلت في النقب مع جنود الاحتياط منذ أربعة عشر يوماً؛ والشعور السائد هناك هو شعور بفشلنا في اتخاذ زمام المبادرة. ناصر يزداد قوة ونحن نجلس هنا لا نفعل شيئاً. علينا بأخذ زمام المبادرة من ناصر!».

وتكلم في أعقابه ماتي بيلد (Matti Peled) أمين الإمداد والتموين في الجيش، بحماس أكثر: «العدو يرسخ أقدامه ويزداد قوة في حين أن اقتصادنا يزداد ضعفاً، وكل ذلك لغاية لم يشرحها لنا أحد حتى الآن».

ثم تكلم أرئيل شارون (Ariel Sharon) قائلاً: «كل هذا التودد للقوى الكبرى، والتوسل إليها كي تساعدنا، ينسف قضيتنا. فإذا ما كنا نريد البقاء هنا فعلينا أن ندافع عن حقوقنا».

نشب عراك صاخب. كانت «حرب استنزاف» كما وصفه الكولونيل ليور (Lior) الذي كان مقتنعاً أن الجنرالات قد خططوا لها سلفاً. «إذ ظلوا يقرعون رؤوس الوزراء. ولا أدري هل كان هدفهم إركاع الوزراء أو دفعهم إلى البكاء».

انخرط إشكول في هذه المشاجرة. ولم يكن أمامه، بعد الانهاك الذي لحق به، والتعب الذي حل به في الوطن واليأس الذي غمره من الأمريكان أينما حل وأينما رحل، سوى أن يتواءم مع صيحة الحرب في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. ولكن ظل يناقش موضوع الزمن أملاً في أن تخول واشنطن القافلة الدولية بالانطلاق، أو أن تعطي إسرائيل «ضوءاً أخضر». فأفهم الجنرالات قائلاً: «ما زلنا بحاجة إلى مساعدة جونسون ودعمه. وآمل ألا نحتاج ذلك في أثناء الحرب ولكننا سنحتاج عونه ودعمه بالتأكيد إذا ما انتصرنا من أجل حماية مكاسبنا.

وأود أن أوضح للرئيس، دون أدنى شك، أننا لم نضلله؛ وأننا منحنا العمل السياسي المصمم لمنع الحرب الزمن اللازم. ويوم أو يومين زيادة أو نقصاناً لن يغير النتيجة. ثم تابع إشكول، غاضباً، ومذكراً شارون بأن «التودد إلى القوى الكبرى» هو

الذي أتى لك بالسلاح الذي يمكّن إسرائيل من الدفاع عن نفسها، ويحرر البلد من الحاجة إلى الأصدقاء عندما تتوقف الحرب. وأردف قائلاً: «علينا أن نسأل أنفسنا إذا ما كان بإمكاننا نحن البلد ذي المليوني نسمة أن نخوض حرباً كل عشر سنين، وهل نستطيع تحدي الولايات المتحدة والعالم؟» ثم اختتم قوله أخيراً، بقوله بصوت رصين: «لا شيء يسوّى بالنصر العسكري. فالعرب سيظلون هنا». (٤٣)

من الواضح أن موشيه دايان كان صامتاً أثناء المشاجرة. كان مشمئزاً، وهو صامت يفكر، مما اعتبره تدخلاً من قبل الحكومة في رؤيته كوزير للدفاع، وأخبر ليور قائلاً: «إنني أعارض القرارات التي تتخذ بالأكثرية بشأن قضايا الأمن».

ومع ذلك ما إن انفض اجتماع غرفة العمليات حتى التقى، على انفراد، مع إشكول وإيبان وألون؛ وانضم إليهم فيما بعد رابين وهيرتزوك، كذلك. وقال لهم دايان إن على الحكومة أن تجتمع غداً الأحد وتخول الجيش بالتصرف، والحرب ستبدأ في اليوم الثاني عند شروق الشمس. واقترح ألون الاستيلاء على القناة واستخدامها ورقة للمساومة لقاء مضائق تيران، ولكن دايان رفض هذا الاقتراح معللاً ذلك بأن المصالح الأجنبية الهامة مرتبطة بالقناة، ولا تستطيع إسرائيل إبعادها. كما رفض اقتراح ألون في احتلال غزة معللاً رفضه بأن قطاع غزة الذي يبلغ طوله ٢٠ ميلاً سوف يستسلم دون أية طلقة في اللحظة التي تسقط فيها سيناء.

لم يعد إشكول يقاوم إملاءات دايان، وحتى إيبان بدا راغباً في الانصياع. لقد حدث التحول في قلب وزير الخارجية بالتدريج متأثراً أولاً بالتقارير التي تشير إلى عجز جونسون عن إطلاق خطة ريفاتا (القافلة الدولية / سباق الزوارق)، ومن ثم بالأدلة التي توحي بأن واشنطن لم تعد تنظر شزراً إلى ضربة استباقية إسرائيلية. وكان للإشارة العفوية التي صدرت عن وزير الخارجية الأمريكي، راسك، عندما سئل فيما إذا كانت الولايات المتحدة تتابع كبحها لإسرائيل، فأجاب: «لا أعتقد أن مهمتنا هي كبح أحد». ثم تلقى إيبان رسالة من أبي فورتاس (Abe Fortas) عبر مصدر

سري موثوق، مفادها أن وزارة العدل غاضبة من راسك لأنه يضيع الوقت وإسرائيل تحترق، «فبدت هذه الرسالة وكأنها إشارة إلى إسرائيل بالمضي قدماً: «لو تصرفت إسرائيل وحدها دون استنفاد العوامل السياسية فإنها تكون قد ارتكبت خطأ كارثياً. ولكان من المستحيل أن تهب الولايات المتحدة لمساعدة إسرائيل، وأن العلاقات مع إسرائيل الناشئة عن هذا السلوك ستكون متوترة. وإذا ما نشبت الحرب فربما تكون طويلة ومكلفة. وعلى الإسرائيليين أن يتيقنوا من أن الإجراءات المدروسة جيداً والمنضبطة سيكون لها أثر حاسم عندما تشرع الولايات المتحدة بدراسة إجراء انخراطها في الأزمة».

أما الضوء الذي أعطاه أرثر غولد بيرغ فكان على ما يبدو «أكثر اخضراراً»، إذ قال: «عليكم أن تفهموا أنكم تقفون وحدكم، وعليكم أن تعرفوا النتائج، «ثم أفضى إلى جدعون رفائيل موضحاً أن خطة ريغاتا قد ماتت وأن إسرائيل وحدها هي القادرة على مواجهة تهديد ناصر القائم حالياً، واختتم كلامه قائلاً: إن الرأي العام الأمريكي والعالمي سيكون في صالح إسرائيل، خصوصاً إذا ما بدأ العرب بإطلاق النار». إنني أفهم أنكم إن تصرفتم فلسوف تعرفون كيف تتصرفون». (٤٤)

كان لمثل هذه الإشارات، انطباع حاسم لدى إيبان؛ أما دايان، فلم يكن لديه سوى وقت قليل لتحليل هذه الإشارات، على أية حال. فلقد كان مُستغرقاً بعمق في استراتيجية الحرب ذاتها، وبلقاءاته مع الجنرالات الذين قال لهم في غرفة العمليات: يوم السبت ليلاً: «علينا ألا ننتظر أكثر من ٧٢ ساعة حتى نقوم بضربتنا. وبالتالي سوف يقيم النجاح ليس بعدد الدبابات المصرية التي ندمرها، بل بمساحة الأرض التي نستولي عليها». وينبغي أن تشمل هذه الأرض شبه جزيرة سيناء بأكملها فيما عدا قطاع غزة والقناة. وكان رابين، أيضاً، يعارض الاستيلاء على شرم الشيخ معللاً ذلك بأنها بعيدة، ومعقدة تعبوياً - بيد أن دايان أصر على احتوائها في الأراضي المنوي احتلالها قائلاً: إن مضائق تيران، مثلها كمثل غزة، سوف تسقط بيد إسرائيل عند انهيار الجيش المصري. وسوف تسحق خرافة العام ١٩٥٦ القائلة إن الجيش المصري لم يهزم، بل انسحب من الميدان فقط.

سوف يتخذ غزو سيناء الذي سيبدأ مباشرة بعد الهجوم الجوي، ثلاثة محاور: الأوّل، اندفاع في شمال سيناء، من منطقة رفح، والمحوران الآخران يتجهان إلى وسط سيناء. وإعداداً لهذه الحملة، ينشغل الجيش في عدد من الأعمال الخادعة، فيقوم سلاح الجو الإسرائيلي بطلعات استطلاعية في عمق خليج العقبة، ويقوم سلاح البحرية بنقل عدد من سفن الإنزال من البحر المتوسط إلى إيلات عبر البر، الأمر الذي يجعل المصريين يعتقدون بأن هجوم إسرائيل سيأتي من جنوب سيناء بدلاً من الشمال والوسط. وتسحب تشكيلات مدرعة وجنود من الحدود إلى الخلف -على أن تعود فيما بعد سراً- ونشر صور لآلاف الإجازات الممنوحة للجنود الاحتياطيين. وأكد السفير البريطاني، ميشيل هاداو، أن الشواطئ كانت غاصة كشواطئ بلاك بول (Blackpool) في فصل العطل». وأخبر دايان الصحفيين ذلك اليوم، عن خبث، «بأنه مستعد للتفاوض على حل، وبأنه ينبغي منح السلام كل فرصة، فإن يوم الهياج والفتنة في إسرائيل قد ولّى». وأضاف هاداو قائلاً: «إنهم يعدون اليوم لنقلة طويلة». (٤٥)

يجب ألا يوفر جهد لضمان نجاح العملية، ولكن النجاح لم يكن متعلقاً فقط بالجبهة المصرية، بل بالجبهتين السورية والأردنية، كذلك. فحذر دايان الجنرالات قائلاً: «إذا هاجم الأردنيون إيلات، فإن ذلك ينسف جميع خططنا في منطقتي القدس وتل أبيب، إذ لن نتمكن من الوصول إلى العريش إذا كنا نقاتل في القدس». عندئذ سوف تتبنى إسرائيل «موقفاً سلبياً تماماً» في الجبهتين الشرقية والشمالية حتى ولو قصفت. المستوطنات. الحدودية:

كانت الرسالة التي طبعها دايان في أذهان قادته وهو يغادر اجتماع هيئة الأركان في رحلة تفقدية إلى ميدان المعركة، هي: «لا قتال مع سوريا والأردن. وقال إلى ديفييد «دادو» إلعازر- (Elazar . Dado . David)، رئيس القيادة الشمالية: «تعوَّدوا على فكرة أن هذه الحرب هي ضد مصر».

كلا الرجلين كانا يراقبان الجبهة السورية من كيبوتز دان (Dan) على بعد ١٨ ميلاً عن كفارها ناسي (Kfar HaNassi) حيث قتل إسرائيليان وفدائي فلسطيني في صدام وقع في اليوم السابق. وكانت مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي قد حذرت مما هو أسوأ: «سوف يقوم السوريون، في غضون ساعة من بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر، بدفع قوات المشاة والمدرعات السورية في الجليل الشمالي وبقصف المدن والمستوطنات الإسرائيلية. ولتحقيق هذه الغاية احتشدت القوات السورية في هضبة الجولان واتخذت مواقع هجومية. وهناك شحنات ضخمة من الذخيرة السوفياتية تصل إلى الموانئ السورية، كما ذكر الجواسيس».

كان إلعازار (Elazar) قد وضع منظومة من خطط الطوارئ للتعامل مع سوريا، بدءاً من هجوم محدود على هضبة الجولان - وأطلق عليها اسم «عملية مارملاد (Marmalade) وبالعبرية (ميركاباتMerkabat) - مروراً بعملية (بنسرزPincers (الكماشة) وبالعبرية ميلكا باييم (Melkabeyim) الهادئة إلى احتلال المرتفعات بأكملها؛ إلى خطة (همر Hammer -المطرقة) وبالعبرية ماكيفيت (Makevet) التي تمثل خطة تجمع بين الخطتين السابقتين».

تتظاهر إسرائيل بأنها سوف تهاجم وسط الجولان، في حين تتقدم الأرتال الإسرائيلية عبر الحافة الشمالية والحافة الجنوبية لمرتفعات الجولان وتستولي على منابع نهر الأردن وتدمر الجيش السوري.

أما خطة المطرقة فتنفذ بالتزامن مع خطة فوكس (Focus) الهادفة إلى استباق هجوم سوري وإحباطه وردع الأردنيين - هكذا كانت نصيحة العازار وعلل الأمر قائلاً: «إذا كانت هناك حرب ضد مصر، فيجب أن يكون هنا حرب كذلك. إذ إن سوريا سوف تقفز في غضون خمس ساعات أو ست بعد بدء القتال. فلا حاجة لنا باستثارتهم». وافق رابين على الخطة من حيث المبدأ، ولكنه رفض فرز القوات اللازمة للتنفيذ، وخصوصاً طائرات الهيليكوبتر التي احتفظ بها كلها من أجل معركة

الجنوب. كما رفض تحليل إلعازار بأن السوريين مصممين على القتال تحت أية ظروف. فكان رابين يعتقد أنه إذا ما هزمت مصر بسرعة فإن السوريين سوف يتراجعون على الفور.

لم يبق لألعازار أمل إلا في دايان. فقال له في أثناء زيارته: «علينا أن نضمن أنه في حال نشوب حرب ألا تنتهي عند الخط الأخضر (خط الهدنة)، فإذا ما دافعنا عن أنفسنا من الوادي في الأسفل فإن وضعنا سيكون مروِّعاً». ثم أشار إلى القرية السورية المحصنة «زعورة» موضحاً أن احتلالها سيشكل لنا منطقة عازلة بين الجولان والمستوطنات، ونقطة انطلاق لاختراق هضبة الجولان.

وكان رد دايان سلبياً تماماً، وأمر العازار قائلاً: «عليكم أنتم الموجودون هنا أن تجلسوا ثابتين وتصمدوا. إذ كان دايان يرفض أية عملية ربما تؤدي إلى تسريع نشوب الحرب مع سوريا، في حين أنه كان يرغب في أن تتقدم القوات بسرعة إلى المناطق المنزوعة السلاح.

أعيد تمثيل المشهد في مقر القيادة الوسطى مع الجنرال عوزي ناركيس (Uzi Narkiss). فعبر ناركيس، مثله كمثل الجنود من أبناء جيله، عن أسفه لعدم تمكنّ إسرائيل من الاستيلاء على الضفة الغربية والقدس في العام ١٩٤٨.

وقال ريهافام زئيفي (Rehavam Ze'evi) أحد الأصدقاء المعاصرين لناركيس متذكراً «كيف أننا جميعاً كنا نحلم بإنجاز حرب الاستقلال، وتحرير أرض إسرائيل باتجاه الشرق. فلو استولينا فقط على المرتفعات التي كان يسيطر عليها الأردن، لضمنا بقاء السهول الغربية. وكان ذلك الحلم يوجهنا جميعاً، بمن فيهم رابين، في وضع خططنا العسكرية».

كانت «دروج» القيادة الوسطى مليئة بمثل هذه الخطط، تدعو كلها إلى القيام بهجمات مضادة لمنع العرب من اختراق إسرائيل في أضيق منطقة فيها وتقسم البلد إلى قسمين، أو تعزل مدينة القدس الغربية.

من أشهر هذه الخطط تلك التي كان يرمز لها باسم «ويب (السوط Whip) وبالعبرية (بارغول Pargol) وتتضمن القيام بعملية تدوم ثمان وأربعين ساعة لضرب مواقع تمركز المدفعية الأردنية في الضفة الغربية وطردهم منها والاستيلاء على القدس الشرقية. أعطى رابين عملية «السوط» أولوية عليا، حتى وإن كان ذلك يعني سقوط المستوطنات الشمالية، وقال: «علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد هجوم يأتي من الضفة الغربية».

ومع ذلك، عندما التقى ناركيس دايان في تلال القدس رفض دايان خطة ويب (السوط) وما هو أقل منها طموحاً، وأمر ناركيس قائلاً: «عليك ألا تفعل شيئاً يشبك إسرائيل مع الأردن، وعليك ألا تزعج هيئة الأركان بطلبات العون». فسأله ناركيس: «وإذا هاجمنا الأردنيون دون إثارة واستولوا على جبل المكبر؟» فأجابه دايان: «عندئذ اصبر واصمد في موقعك. ففي غضون أسبوع نصل إلى القناة وشرم الشيخ، وبعدها سيأتي جيش الدفاع بأسره إخراجك من ورطتك.» (٤٦)

كان ذلك السبت طويلاً وشاقاً على دايان، ومع ذلك كان أمامه مزيد من المهام وكأن النهار لن ينتهي. كان أمامه لقاء مع إشكول في شقته الخاصة في القدس.

كان رئيس الوزراء قد تلقى نبأ بأن الجيش الإسرائيلي يفتقر إلى ست طائرات كي يكتمل العدد اللازم المثالي للحرب، أما بقية الأسلحة -الدبابات، والمدافع، وأنصاف المجنزرات- فكانت مجهزة تماماً للمعركة. جلب له هذا التقرير عزاءاً محدوداً، برغم الأنباء الكئيبة الآتية من باريس التي مفادها أن ديغول الذي هدد من قبل بفرض حظر على بيع الأسلحة إلى الدولة التي تبدأ بالعدوان في الشرق الأوسط، قد فرض حظراً على جميع الأسلحة إلى إسرائيل. واعترض سفير إسرائيل إلى باريس «إيتان»، قائلاً: «لقد أدنتمونا وكأننا قد بدأنا بإطلاق النار. كيف تفرضون حظراً على إسرائيل دون أن تعرفوا من سيبدأ الحرب؟» ولكن احتجاجه ذهب أدراج الرياح. إن ديغول الذي كان يشك في مقدرة إسرائيل على هزيمة العرب،

وكان تواقاً لإعادة الروابط التاريخية بين فرنسا والعالم الإسلامي، قد اتخذ قراره، وصد إيتان بفظاظة قائلاً: « سيدي العزيز، أنا أعرف شيئاً واحداً فقط - هو أنك أنت نفسك أيضاً لا تعرف ماذا ستقرر حكومتك». (٤٧)

كان إشكول ينتظر في بيته، الآن في أواخر يوم السبت ليلاً، كلاً من دايان وإيبان، وليفافي (Levavi) وهيرزوغ وبادين - اجتمعوا، كلهم، ليستمعوا إلى الكلمة الأخيرة من أميث وهارمان، العائدين من توهما من واشنطن. قال إشكول لزوجته مريم متسائلاً بصوت مسموع: «من يدري، ربما يأتي هؤلاء الفتيان (بالعبرية جنغرمن «Jungermen») بأنباء غير متوقعة؟ من المهم أن يعرف العالم أننا انتظرنا بما فيه الكفاية. إنني متأكد من فوزنا، ولكنها حرب باهظة التكاليف. كم سيدعوننا نحارب؟ فإذا ما سارت الأمور لصالحنا، فإن الروس وديغول وغيرهم سوف يطالبون بوقف إطلاق النار ويضغطون من أجل ذلك».

كتب الكولونيل ليور الذي استدعي كذلك ليسجل وقائع الاجتماع يقول: «كان التوتر لا يطاق». إذا ما أوصى أميث وهارمان بالحرب، فلن تكون هناك أية اعتبارات أخرى -لا المقاطعة الفرنسية، ولا الإنذارات السوفياتية- يمكن أن توقف إسرائيل عن العمل العسكري. دخل الاثنان حوالي منتصف الليل وسلما رسالة موحدة، مفادها أن الولايات المتحدة لا تستطيع دعم عملية القافلة -ولن تبادر أو تشارك - ولن تتعاون مع إسرائيل عسكرياً. وتابع أميث نصائحه: «إذا بدأنا الحرب وربحناها - سيكون الجميع معنا. وإن لم نربحها سيكون ذلك وبالاً علينا». ثم أردف على الفور قائلاً: «لدي انطباع بأن الأمريكيين سيباركون أي عمل ينجح في إلصاقه بعبد الناصر». وبدا أنه وهارمان يدعوان إلى القيام بضربة استباقية على الفور، ولكنهما فاجأ المستمعين إليهما باقتراحهما «أن تنتظر إسرائيل أسبوعاً آخر، ومن ثم ترسل سفينة إلى تيران». وكان في ذهنهما الباخرة دلفين (Dolphin) الناقلة الإسرائيلية الراسية في ماساوا (Massawa) في أثيوبيا ومحملة بما قيمته تسعة ملايين دولار نفطاً.

أما دايان، الذي ظل صامتاً حتى هذه اللحظة، فقد انفجر فجأة: «في اللحظة التي نرسل فيها سفينة عبر مضائق تيران سيعلم المصريون أننا على وشك الهجوم. وبالتالي سوف يهاجموننا أولاً... ونخسر أرض إسرائيل. من الجنون المطبق أن ننتظر!!».

تراجع أميث هارمان عن اقتراحهما عندما صَمَّ آذانهما هذا الانفجار الدایاني. ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية الاجتماع قبيل الفجر، أخذ دايان زمام إدارة الحديث يوجهه حيث يشاء، نحو عقد اجتماع لمجلس الوزراء صباح اليوم التالي، ونحو ضمان الموافقة على القيام بالهجوم. وقدر للمجتمعين أنه «في غضون ساعة أو ساعتين يكون سلاح الجو الإسرائيلي قد حقق أهدافه الكبرى؛ وكذلك القوات البرية تكون قد حققت أهدافها الكبرى في اليوم الأول. وفي اليوم التالي سنكون في طريقنا إلى القناة. ولن يكون لدى مصر سلاح طيران إلى ما بعد نصف سنة على الأقل». (٤٨)

في غضون يومين من التحاق دايان بالحكومة وزيراً للدفاع، استطاع أن يسيطر على القرار الإسرائيلي ويوجهه نحو الحرب بصورة حتمية. ومع ذلك كان وزير الدفاع مخطئاً في ظنه أن مجلس الوزراء سوف يوافق على ما توصل إليه بصورة روتينية. لدى انعقاد مجلس الوزراء في الساعة ١٥:٨ صبيحة يوم الأحد، استمع الوزراء أولاً إلى تحليل للوضع العسكري، ولكنه أكد على إصرار الرئيس الأمريكي على ضرورة أن يطلق ناصر الرصاصة الأولى، ويفضل أن تكون على سفينة إسرائيلية. ولكن التقرير غَيَّبَ مساعي الإدارة الأمريكية الضاغطة باتجاه مشروع القافلة على الرغم من ردود فعل أعضاء الكونغرس والدول البحرية المحيطة.

لم يكد ينتهي إيبان من استعراض السياسة الأمريكية حتى وردت رسالة أخرى من جونسون. أكدت هذه الرسالة، أيضاً، على التزام أمريكا بأمن إسرائيل وبحرية البحار - بغض النظر عن المشكلات المتعلقة بالقافلة. وأشار في هذه الرسالة إلى أنه تبادل وجهات النظر الكاملة مع الجنرال أميث، ملمحاً إلى انفتاحه على العمل

العسكري الاستباقي. بيد أن خاتمة الرسالة قد مَحت هذا الانطباع فوراً، إذ قال الرئيس: «لا بد لي من التأكيد على ضرورة ألاَّ تجعل إسرائيل نفسها مسؤولة عن مبادرة العدوان. إن إسرائيل لن تكون وحدها إلا إذا قررت هي أن تكون وحدها. ونحن لا نتصور أبداً أنها سوف تتخذ مثل هذا القرار».

إن مهمة إقناع الوزراء بأن على إسرائيل أن تتصرف فوراً، رغم تحذيرات جونسون، قد وقعت الآن على عاتق بارليف. كانت صورة الوضع الأمني الإسرائيلي ممتقعة مخيفة: فالقوات الأردنية متمركزة في القدس عند خاصرة إسرائيل الدقيقة، والتشكيلات المصرية منتشرة للاستيلاء على إيلات، محصنة بكثافة عند رفح، وتتمركز الآن في الضفة الغربية كذلك، والسوريون متمركزون في مرتفعات الجولان ويستعدون بنشاط للنزول عنها نحو إسرائيل. وتتجمع القوات والدبابات والطائرات من البلدان العربية لتقوم بهجوم موحد على وجود إسرائيل مطمئنين إلى دعم السوفيات.

تكلم دايان بعده مؤكداً على الحاجة إلى التحرك فوراً قبل أن تتعاظم القوات العربية وتزداد قوة، ومع ذلك ظل هناك ما يشبه المفاجأة، إذ قال: «يجب أن يكمل ناصر المنهج الذي بدأه، وعلينا أن نفعل ما يريدنا أن نفعله». وتنبأ بتدمير مئات الطائرات المعادية - «إنها فرصتنا الوحيدة لنخوض هذه الحرب بطريقتنا ونفوز فيها». - على أن تتبع بمعركة دبلوماسية مريرة.

ثم جاء دور إشكول الذي قاوم ضغوطاً هائلة خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة، وعُنفَ وعزل واحتُقِر، ولكنه في النهاية هو صاحب الكلمة الأخيرة. فقال: «إنني مقتنع اليوم بأن علينا أن نترك الأمر إلى جيش الدفاع الإسرائيلي: زمن القيام بعمل عسكري وأسلوب تنفيذه».

مازالت هناك اعتراضات. إذ استشهد حاييم موشي شابيرا بقول بن غوريون إن إسرائيل لن تذهب إلى الحرب دون حليف. «فليذهب بن غوريون، إذن، وليجد لنا حليفاً». قاطعه دايان قائلاً: «لست متأكداً من أننا سنظل أحياء!!» وانبرى

وزير الشؤون الدينية، زوراخ وارها فتيغ (Zorach Warhaftig) للدفاع عن شابيرا. كان زوراخ قصير القامة جداً يكاد يكون قزماً، ولكنه موهوب بعقل قانوني كبير وقناعة أخلاقية جعلته يتجاوز اهتمامه بأولاده الثلاثة الذين يخدمون في الجيش وقلقه عليهم. طالب زوراخ بضرورة إرسال سفينة عبر المضائق لإيجاد سبب للحرب. وعلل طلبه هذا بقوله: «خير أن يقتل بحار أو اثنين من أن يلقى باللوم على إسرائيل في شن الحرب. ليس لدي أي شك في النصر. بل أنا قلق بشأن اليوم الذي يلي النصر».

ولكن التهديد الدولي بالإدانة لم يؤثر فيما أصبحوا يشكلون الأكثرية في مجلس الوزراء. ثم قال إيغال ألون بعد أن نحّى مخاوف وارها نتيغ جانبا: «سوف يدينوننا، ولكننا سنبقى على قيد الحياة.»

ولم يبق بعد ذلك سوى التصويت. صوت اثنا عشر لصالح الحرب، وعارض اثنان فقط. كتب دايان مسودة القرار. كان قصيراً، بسيط اللهجة خالياً من العواطف:

«بعد سماع التقارير حول الوضع العسكري والدبلوماسي من رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان ورئيس مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي، انتهى مجلس الوزراء إلى أن جيوش مصر وسوريا والأردن قد انتشرت للهجوم على إسرائيل من جبهات عديدة الأمر الذي يهدد وجود إسرائيل. لذلك قرر مجلس الوزراء القيام بضربة استباقية تهدف إلى تحرير إسرائيل من الطوق المحيط بها ومنع وقوع الهجوم الوشيك الذي ستشنه القيادة العربية الموحدة. (٤٩)

ترك توقيت العملية إلى دايان ورابين. وكلاهما كانا تواقين لبدء الهجوم بأسرع ما يمكن وقبل أن تدخل القوات العراقية الأردن وقبل أن يعبر الفدائيون المصريون الضفة الغربية. وهكذا تقرر أن تكون ساعة الذروة في صبيحة اليوم التالي الإثنين في الخامس من يونيو (حزيران)، ١٩٦٧بين الساعة السابعة والساعة السابعة والنصف.

العالم العربي يستعيد نشاطه:

قال عبد الناصر للضباط المجتمعين في مقر القيادة العليا في الثاني من يونيو (حزيران): «علينا أن نتوقع أن العدو سيضرب في غضون ٤٨ ساعة إلى ٧٢ ساعة بحلول الخامس من يونيو (حزيران) على أبعد تقدير. تكلم في الاجتماع أولاً رئيس المخابرات العسكرية، صادق، الذي بين أن جيش الدفاع الإسرائيلي قد أنجز حشده وانتشاره. إن تعيين دايان وزيراً للدفاع بالإضافة إلى تقارير تشير إلى قيام الطائرات الإسرائيلية بطلعات استطلاعية عميقة فوق سيناء، يدل على نشاط جديد. وأشار إلى أن أمام إسرائيل خيارين: إما قبول الأمر الواقع أو الهجوم. والخيار الآخر هو الأكثر احتمالاً على ما يبدو بسبب دخول القوات العراقية إلى الأردن. فإسرائيل تعتبر دائماً وجود مثل هذه القوات ذريعة للحرب، وسوف تتصرف، بالتأكيد، على الفور. فهل على مصر، إذن، أن تضرب أولاً؟.

نشب جدال بصوت عال أحياناً بين صادق وصدقي محمود. إذ أوصى الأول بسحب الطائرات المصرية من القواعد المتقدمة في سيناء حيث هي معرضة لهجوم مفاجئ. بيد أن قائد الطيران صَدَّ الفكرة صائحاً في وجهه: «أنا أعرف عملي، يا صادق!! إن التخلي عن القواعد المتقدمة يحطم معنويات الطيارين!!» ومازال يعارض الانتظار حتى تقوم إسرائيل بالضربة الأولى. وقال متوقعاً: «سوف نخسر ما بين ١٥٪ إلى ٢٠٪ من طائراتنا، فنصاب بالشلل». جاء الآن دور عبد الناصر ليعترض على أن تكون مصر هي البادئة بالهجوم موضحاً بأن مصر لا تستطيع إهمال الرأي العام العالمي بهجومها على إسرائيل أو تجازف بصلاتها الجديدة بفرنسا. كما أن هناك بداية محادثات مع الولايات المتحدة، وزيارة محيي الدين المقررة إلى واشنطن. لقد عانت إسرائيل من هزيمة استراتيجية خطيرة، ولكن ذلك يمكن أن يضيع إذا ما بدأت مصر الهجوم». ثم طمأن صدقي محمود بقوله: «يبقى لديك ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من طائراتك. فكم من الخسائر تستطيع أن تنزل بالعدو بهذا العدد المتبقي لديك من الطائرات؟ «فأجاب قائد الطيران: «من٦٠٪ إلى٧٠٪». (٥٠)

يبدو أن ناصر كان ذا رأيين متنافرين بشأن الأزمة. الأولى يرى أن إسرائيل، بفضل حشرها في زاوية، ستقوم في غضون أيام بضرب سلاح الجو المصري أو مصافي النفط في السويس. ومع ذلك كان يشعر بأنه يمكن تجنب الحرب والتوصل إلى حل دبلوماسي تكون فيه مصر هي المستفيد الرئيسي. إذ سيتم الاعتراف بالأمر الواقع في سيناء كما سيتم الحصول على مساعدات كبيرة من الولايات المتحدة والدول العربية. ورداً على سؤال أحد أعضاء جماعة الضباط الأحرار عن الزمن الذي ستقوم إسرائيل فيه بالهجوم، أجاب عبد الناصر باختيال: «ستة شهور إلى ثمانية»، هذا إن هاجمت أصلاً. وزعم أن الإسرائيليين لن يتحركوا دون إذن من الأمريكيين والأمريكيون محرجون من السوفيات، فلا يمنحون إسرائيل ذلك الإذن. ظهر تباين الرأيين لدى عبد الناصر في مقالتين صحفيتين منفصلتين أجراهما مع الصحافة البريطانية في الثالث من يونيو. ادعى في واحدة منهما أن الحرب وشيكة؛ وفي الأخرى أن الأزمة قد عبرت وانتهت. (٥١)

لم يكن ناصر وحده الذي كان يعتقد أن إسرائيل قد هزمت، وأن نصراً لا دموياً قد أحرز. فسفير كندا إلى القاهرة ر.م.تيش(Tesh. M. R) قال: «لم يحبذ فكرة وجود خطر قيام إسرائيل بهجوم يائس سوى قلة من المراقبين الدبلوماسيين، وبدا أنهم كانوا يحبذون مراقبة ما يجري في إسرائيل أو فهمه. هناك قبول بأن ناصر قد نجح في توجيه ضربة موفقة، وأن الروس قد عادلوا الأمريكيين وحيّدوهم.» وعلى الرغم من استمرار عمليات التعتيم والغارات الجوية التدريبية، وحجز أسرة المشافي، وتشكيل نوادٍ عسكرية شبابية، كانت الحالة في مصر تعود بثبات إلى الوضع الطبيعي. فخففت إجراءات الطوارئ، والقيود المفروضة على السفر الداخلية. حتى إن السياحة قد بدأت تنشط. احتج سفير مصر إلى الأمم المتحدة، القوني (El - Kony) على «سياسات القرن التاسع عشر الاستعمارية القائمة على دبلوماسية السفن الحربية». وهدَّد «باتخاذ كل الإجراءات الضرورية لإيقاف العدوان ضد المياه الإقليمية المصرية». ومع ذلك تابعت سفينة انتربيد (Interpid) الأمريكية إبحارها

عبر قناة السويس دون إعاقة تواكبها سفن مصرية، ويحييها آلاف القرويين. وقال عبد الناصر مبتهجاً أمام الجمعية الوطنية: «نحن الآن مستعدون لمواجهة إسرائيل... فلم تعد القضية الآن هي قضية خليج العقبة أو مضائق تيران أو انسحاب قوات الطوارئ الدولية، بل هي قضية العدوان الحاصل في فلسطين... الذي تم بتواطؤ بريطانيا والولايات المتحدة». (٥٢)

هل كانت الحرب وشيكة أم أنها حسمت بالنصر؟ ظهور هذا السؤال عَمَّق الفوضى المنتشرة الآن في الجبهة المصرية. إذ استمر وصول آلاف الاحتياطيين دون تجهيزات أو طعام أو إحساس بالمكان أو الغاية. واستنتج تقرير وضعه جناح التخطيط في الجيش أن مصر تحتاج إلى ستة شهور أخرى لتدعيم دفاعاتها في سيناء بحيث تصبح جاهزة للمعركة، ولكن هذه التوصية أهملت، بل ربما لم يقرأها أحد. وبدلاً من الأخذ بها عمت الفوضى. وعندما وصل الجنرال توفيق عبد النبي، الملحق العسكري المصري السابق في كراتشي. إلى سيناء ليستلم قيادة لواء المدفعية المضادة للدرع، وجد أن ليس لديه مدفعية، ولا مدافع هاون، وأن ليس لديه سوى سبع دبابات استعيرت من وحدة أخرى. فضلاً عن أن جنوده لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحرب المضادة للدبابات.

انهكت عشرات الوحدات، وبليت مركباتها وهي تنتقل في الصحراء إلى الأمام وإلى الخلف. إذ تحركت إلى غزة بأمر شخصي من عبد الناصر. نظر الجنرالات الأكثر خبرة إلى هذه التنقلات بهلع، لأنها لا تبدد فقط قوة الجيش، بل إن الانتشار المبني على أساس خطة «الفاتح» قد تفككت، أيضاً. ومع ذلك كان عامر هو الوحيد الذي احتج لدى عبد الناصر مذكراً إياه بأن «ذلك هو ابتعاد كبير عن خطتنا». فأجابه الرئيس قائلاً: «لغزة قيمة سياسية ودعائية عليا. فماذا يقول العرب عني إذا وعدتهم باستعادة فلسطين، وخسرت غزة والعريش؟» ولكن عامر اعترض متسائلاً: «وماذا سيقولون إن خسرنا الحرب بأكملها؟» ثم خرج متظاهراً بالغضب والتأفف. (٥٣)

إذا كان عبد الناصر مشتت الرأي بين احتمال قيام إسرائيل بهجوم أو عدم قيامها بهجوم، فإن عامراً ظل ملتزماً بالقيام بهجوم مصري على خطوط «خطة الأسد»: إذ مازال يأمل بشن هجوم جوي وأرضي في النقب، وعهد إلى قوات الشاذلي بصد أي تحرك إسرائيلي مضاد في سيناء. وقال للجنرال مرتجى Murta-gi) بيني وبين موشي دايان نزاع يعود إلى الحرب الثلاثية.

وهذه فرصتي لألقنه درساً لن ينساه ولأدمر الجيش الإسرائيلي. وصرح إلى صدقي محمود: «إنس خساراتك المقدرة ب٢٠٪ وحارب إسرائيل». واستعداداً لذلك القتال تابع عامر بتحريك الجنود هنا وهناك -فمثلاً انتقل اللواءان الاحتياط ١٢٤و١٢٥، أربع مرات في عشرة أيام- متجاهلاً تقارير المخابرات التي تبين أن القوات الإسرائيلية تحتشد في شمال سيناء ووسطها، وليس في الجنوب كما هو مفترض. (٥٤)

ولكن عامر كان متشبثاً جداً بخططه للقتال القادم، ومستغرقاً في محاولاته توسيع سلطته أكثر. فقد غير بنية الجيش في سيناء خلال الأيام الأولى من يونيو (حزيران) مقسماً شبه جزيرة سيناء إلى القيادة الشرقية والغربية، وقيادة القناة، والقيادة الأمامية، وقيادة الميدان. وكان لا بد للأوامر الصادرة عن القيادة العليا إلى الميدان أن تمر عبر ما لا يقل عن ستة ضباط كبار قبل وصولها.

وملئت هذه المواقع باتباع عامر، وبيروقراطيين عسكريين ذوي خبرة قتالية قليلة، هذا إن كان لديهم خبرة أصلاً، وكانوا مسؤولين مباشرة أمام عامر. ارتعد الإسرائيليون لدى مراقبتهم هذه التغييرات. قال شايكي غافيش: (Shaike Gavish) «لقد أوجد خمس مستويات جديدة من القيادة بأناس لم يحاربهم قط. ويجب أن نقطع نصف الطريق إلى السويس حتى قبل أن يتلقوا أمراً». لكن عامراً تجاهل كل هذه المزالق، على ما يبدو. إذ ظل واثقاً من جيشه وبقوته، بوجه خاص. وقال في إيجاز له للطيارين في سيناء: «ربما تكون هذه الحرب فرصة اليهود، لإسرائيل

ورابين، ليجربوا قوتهم ضدنا وليكتشفوا أن كل ما كتبوه حول حرب ١٩٥٦ واحتلال سيناء لم يكن سوى مجموعة من الهذيان والهراء». وفي مكالمة هاتفية مع الشقيري في الرابع من يونيو (حزيران)، عَبَّر عامر عن أمله في «أننا سنكون قريباً قادرين على أخذ زمام المبادرة وتخليص أنفسنا من إسرائيل إلى الأبد».

خطط المشير للقيام بجولة تفقدية للمواقع المتقدمة في سيناء في اليوم التالي؛ واستعداداً لذلك أصدر أمره الحربي الثاني. لخَّص أحداث الأسبوع -الحلف المصري- الأردني، وإرسال قوات عراقية إلى الأردن، وإحباط السوفيات لجهود إسرائيل للحصول على دعم أمريكا لعدوانها. وبما أن إسرائيل تعاني من ضغط تكاليف الاستنفار الباهظة، وتواجه تهديدات من الجبهة الشرقية، فإنها سوف تشن هجوماً في غضون أسبوعين. هكذا قرر عامر، وعلى هذا الأساس أصدر أوامره: «هدفنا تدمير قوات العدو المسلحة الرئيسة. وجيشنا يستطيع إنجاز ذلك بما لديه من قدرات تحت تصرفه». ثم دعا الجيش ليبدي انضباطاً وشجاعة، و«ليقاتل بأقصى ما لديه من قوة». واختتم أوامره بقوله «إن المعركة ليست من أجل مصر، بل من أجل الأمة العربية بأسرها؛ بأيديكم شرف القوات المسلحة وشرف الأمة العربية. إنني واثق من النصر. قواكم الله وحفظكم». (٥٥)

لم يكن لدى ناصر ولا عامر أي شك في مقدرة الجيش على الدفاع عن البلد ضد إسرائيل. أما هزيمتها، على أية حال، ربما تتطلب جهد كل العرب. بقدر ما كانت استراتيجية دايان معتمدة على إبقاء سوريا والأردن خارج الحرب، فإن استراتيجية مصر كانت معتمدة على وجودهما في المعركة.

كانت الآفاق بالنسبة للأردن متفائلة. إذ استمرت الحياة هناك، كما في مصر عادية برغم حملات الطوارئ للتبرع بالدم، والمظاهرات الناصرية، واستعدادات الجيش المحمومة للحرب. وكان الجنرال عبد المنعم رياض، الذي تولى الآن قيادة الفيلق العربي والفدائيين المصريين في الأردن، يعمل بسرعة على إتمام مسحه

لدفاعات الضفة الغربية. لم تكن هذه النشاطات بسبب تعرض الحدود البالغ طولها ٣٠٠ ميل للخطر فحسب، بل بدافع تهدئة الفلسطينيين. فقد ورد في تاريخ رسمي للجيش الهاشمي أن «ضياع أية قرية فلسطينية واحدة ووقوعها بيد الإسرائيليين سيثير ردات فعل عنيفة وخطيرة، ليس في الأردن فحسب، بل في جميع أنحاء البلاد العربية». وهكذا بدلاً من تركيز القوات في مناطق استراتيجية، نشرت تسعة ألوية من أصل أحد عشر لواء أردنياً في القرى والمدن حيث يراهم الناس. وإذا ما نشبت الحرب تتجمع هذه الوحدات المبعثرة في محاور حيوية لتفادي اختراقات إسرائيلية؛ أما إذا فشلت في ذلك، فإنها تتراجع إلى المرتفعات المطلة على وادي الأردن.

وافق الحسين بنفسه على خطط رياض، ولم يعترض أي من جنرالات الفيلق العربي. الوحيد الذي عارض هو قائد اللواء «عاطف المجالي» رئيس عمليات الجيش الذي يحظى باحترام واسع النطاق. إذ ألح على ضرورة نشر جميع القوات الأردنية في القدس، «لأن من يسيطر على القدس يسيطر على الضفة الغربية» كما قال ولكن رياض تجاوزه. فلم ينقل إلى القدس إلا لواء مشاة هو لواء الإمام علي، معززاً لواء الملك طلال السابع والعشرين الموجود هناك، مع ذخيرة تكفي شهراً. أما اللواءين المدرعين الأربعين والستين فقد تمركزا في مواقع في وادي الأردن، حيث يستطيعان التقدم فيها إما في الضفة الغربية أو إلى القدس، كما تتطلب مقتضيات القتال. كان من المتوقع أن يصمد الفيلق العربي، بما له من قيادة متفوقة، وبما حصل عليه من تدريب عال، في خطوطه، على الأقل، إلى أن تصل التعزيزات من البلدان العربية الأخرى، وخصوصاً من العراق. (٥٦)

ولكن الجيش لم يكن مقتنعاً بالصمود في خطه فقط، بل قام المخططون العسكريون الذين يتوقعون النصر سلفاً بإحياء خطة «طارق» (باسم الجنرال العربي في القرن الثامن، طارق بن زياد الذي سمي جبل طارق باسمه)، وهي خطة قديمة تهدف إلى عزل القدس اليهودية واستخدامها كقوة نفوذ ضد أي احتلالات إسرائيلية في الضفة الغربية. ولدى بدء المعركة يُشنُّ هجوم ذو أربع شُعب على

المواقع الإسرائيلية في شمال القدس وجنوبها - على جبل المكبر، وهضبة مبنى الحكومة، وحول ممر اللطرون. وكان على القوات الأردنية أن «تدمر جميع المباني وتقتل كل شخص» في تلك المناطق بمن فيهم المدنيين. وتقوم الطائرات والمدفعية الأردنية بقصف المطارات الإسرائيلية، كذلك. حتى الحسين، المعروف بالاعتدال وضبط النفس، لم يعارض هذه الحمى. وفي الربع من يونيو (حزيران)، بعد أن تلقى الحسين كلمة من ناصر مفادها أن إسرائيل ربما تضرب في غضون ٤٨ ساعة، استدعى السفراء غير العرب وحذرهم من التورط في القتال. إذ قال لهم: «اتركونا وحدنا مع الإسرائيليين. ولن ننسى من يقف بجانبنا، ومن يقف إلى جانب إسرائيل فهم أعداؤنا، ويمكنهم أن ينسوا أية صداقة كانت لهم هنا». (٥٧)

في حين كان التعاون بين مصر والأردن وثيقاً في الاستعداد للحرب، سلكت سوريا طريقها الغامض. إذ تجاهل الزعماء السوريون معاهدة الدفاع مع مصر، ورفضوا تنسيق سياساتهم مع القاهرة. فوافقوا على استضافة قوات عراقية - الفرقة الأولى المؤلفة من خمسين دبابة وصلت حلب في الأول من يونيو - ولكنهم عزفوا عن قبول عرض بإرسال طائرات مصرية. وهكذا ازدادت العلاقات المصرية - السورية الباردة جموداً عندما دبت الحرارة في العلاقة بين عبد الناصر والحسين. فقد صرح الجنرال مصطفى طلاس: «لن نغير موقفنا من الأردن وملكه الحسين طالما يتقاضى راتبه من أسياده في واشنطن». ونشرت صحيفة البعث الرسمية صوراً للحسين وناصر والشقيري، تحتهم علم كتب عليه «العملاء الخونة الثلاث». أرسل أولاً محمود رياض ومن بعده زكريا محيي الدين إلى دمشق بمهمات تهدئة واسترضاء، ولكنهما فشلا. شكا عامر إلى هيئة أركانه قائلاً: «الموقف السوري ليس مشجعاً، وتوضح ذلك لدى عقدنا معاهدة مع الأردن... استقبلوا محيي الدين بفتور، ورفضوا طلباتنا العسكرية». (٥٨)

خلافاً لمصر والأردن، بدت سوريا وكأنها بلد على حافة الحرب. إذ فرضت أنظمة طوارئ وطبقت بصرامة، وأخذت مفارز مسلحة تسليحاً ثقيلاً تحرس الجسور والمباني والمؤسسات العامة، وأخذ رجال المقاومة يجوبون الشوارع. وكان الاحتراس

أكثر من مجرد استعراض، إذ كان الجيش يستعد للتحرك في اللحظة التي يبدأ فيها أي من الطرفين، المصريون أو الإسرائيليون، الهجوم. استعد السوريون لتطبيق خطة «نصر» بتزويد طائراتهم وإعدادها للدفاع عن مرتفعات الجولان-عملية الجهاد «الهجومية». وبموجب الخطة التي وضعها السوفيات باسم «نصر» يشن هجوم خاطف سريع على جبهة طولها أربعون ميلاً تقوم به ثلاث فرق موسعة. وبعد اختراق الدفاعات الإسرائيلية في كيبوتز. مشمارها يردن، تستولي هذه القوات على مدينتي طبريا وصفد مع مستوطنات منطقة دان (Dan)، ثم يعاد تجميع هذه القوات لاحتلال العفولة وحيفا والناصرة.

بدأت الوحدات المهيأة للاشتراك بخطة «نصر» تتجمع ليلة الرابع والعشرين من مايو (أيار). فقامت قوات من الفرقة الخامسة والثلاثين بتعزيز المواقع في بانياس وتل عزيزيات فوق جرف الجولان. وبدأت الوحدات المطلوبة لحماية الجولان التجمع في القنيطرة أكبر مدن الجولان - ثلاثة ألوية مشاة، لواءان مدفعية، ولواءان مدرعات. ويقود الهجوم لواءان مدربان تدريباً عالياً هما اللواء ١٢٣، واللواء ٨٠، وأخيراً بدأ الجنود المشاة يحفرون خنادق متقدمة في الثالث من يونيو استعداداً للخرق. وأزيلت العقبات ضد الأفراد على طول منابع الأردن، ونقلت إلى المنطقة قوارب مطاطية لتيسير العبور. وكان من المقرر أن تنهى العملية في ستة أيام. (٥٩)

لم يطرح أبداً سؤال حول ما إذا كان الجيش قادراً على تنفيذ هذه الخطة أم لا. كانت هيئة الضباط تظهر باستمرار، إذ حل محل الذين سُرحوا حوالي ألفي «معلم» عقائدي بعثي. ويقول إبراهيم اسماعيل خاحيا Khahya الذي أصبح قائداً للواء المشاة الثامن في العام ١٩٦٦، مستذكراً: «كنت أعمل معلماً في كلية الأركان، ومعظم ضباطي من المعلمين أيضاً، غير جاهزين للحرب». كما سُرح رئيس مخابرات الجولان الكولونيل نشأت حبش، وعين مكانه أحد الضباط برتبة نقيب، وهو أخ لأحد المسؤولين الكبار في حزب البعث. إنه أحمد سويداني، الملحق العسكري السابق في بكين، الذي رُفع من رتبة نقيب إلى فريق، وعين رئيساً لهيئة الأركان. وعلى الرغم

من أن الـ ٢٥٠ دبابة والـ ٢٥٠ مدفعاً التي تملكتها سوريا هي أحدث صنعاً ونوعاً من الدبابات والمدافع الإسرائيلية إلا أن صيانتها كانت في الحد الأدنى. كما أن الإمداد لم يكن سوياً، إذ كان جنود الخط الأول يتركون مواقعهم بحثاً عن الطعام لعدم توفره لديهم أحياناً. وكان سلاح الجو دون المستوى المطلوب. وورد في تقرير داخلي أن ٤٥٪ من الطيارين السوريين جيدون، و٣٢٪ متوسطون، والبقية (٢٣٪) دون الوسط. كان فقط ٣٤ طائرة نفاثة من أصل ٤٢ في قاعدة الضمير وصيقل جاهزة للعمل.

ومع ذلك لم تكن المعنويات في صفوف الجيش بأعلى مما كانت عليه حينذاك ويذكر النقيب محمد عمار، ضابط مشاة، في قلعة تل فخار: «ظننا بأننا كنا أقوى، وأننا قادرون على التمسك بأرضنا، وأن الجولان لا يمكن اختراقها. واشتدت عزائمنا خصوصاً بالوحدة بين سوريا ومصر والأردن». كما سمع نقيب آخر اسمه مروان حمدان الخولي يقول «إننا كنا أقوى بكثير ولسوف نهزم العدو بسهولة. وكنا بانتظار يوم التحرير». ولم يكن أعضاء هيئة الأركان بأقل ثقة من هؤلاء الضباط. إذ قال طلاس: «إذا ما بدأت المعارك فإن الجمهورية العربية المتحدة وسوريا تستطيعان تدمير إسرائيل في أربعة أيام على الأكثر». (٦٠)

على الرغم من الخلافات المريرة، وانقسام الرأي، فيما بين الدول العربية فقد توحدت الآن كما لم تتوحد من قبل في تاريخها ما بعد المرحلة الاستعمارية. لم يكن هناك أدنى شك بأن العالم العربي موجود وقادر على الفعل. وكانت تلك هي اللحظة التي كان ينتظرها الكثيرون بشوق منذ ما قبل العام ١٩٤٨. إذ سيتم الانتقام ليس من إسرائيل وحدها، بل من الغرب الذي أوجدها لتكريس اضطهاد المنطقة وشعوبها منذ قرون. قال رئيس وزراء الجزائر. هواري بومدين متفاخراً: «سيتم تحرير الوطن بتدمير الكيان الصهيوني وطرد الأمريكيين والبريطانيين من المنطقة». وقال وزير خارجية اليمن، سلام، موافقاً على ذلك: «إننا نريد الحرب. فالحرب هي الوسيلة الوحيدة لتسوية مشكلة إسرائيل. والعرب مستعدون». حتى أكثر الناس اعتدالاً تحولوا إلى متطرفين. فقد قال رئيس الوزراء الأردني، جمعة، إلى بيرنز في عمان:

«لا بد وأنك جننت، فما من عربي، مهما كان في سره يريد انهيار عبد الناصر، يرغب في أن يرى ذلك الانهيار يتم بسبب مضائق تيران». وأوضح رشيد كرامي. أحد الزعماء اللبنانيين الوطنيين إلى بورتر: (Porter) «كيف أن العرب لم يعودوا يتحملون عار إسرائيل، فتوحدوا حول هذه القضية... وسوف ينتصر العرب في النهاية».

تجمعت في سيناء فرق عسكرية تمثل بلداناً كانت قبل أيام تعتبر مصر عدواً مميتاً، مثل المغرب وليبيا والعربية السعودية وتونس. حتى السوريون لانوا أخيراً ووافقوا على إرسال لواء ليقاتل جنباً إلى جنب مع العراقيين في الأردن. واستطاعت الجيوش العربية مجتمعة أن تحشد للميدان ٩٠٠ طائرة مقاتلة، وأكثر من ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دبابة، ونصف مليون جندي؛ بالإضافة إلى القوة السياسية الهائلة. فالبلدان العربية المنتجة للنفط وعدت بمقاطعة البلدان التي تساعد إسرائيل، وتأميم مصافي النفط، وحتى تدمير أنابيب النفط. وحذر ناصر من احتمال إغلاق قناة السويس. وشعر العرب كلهم، في شمال إفريقيا والهلال الخصيب والخليج بأنهم ملتزمون بجهد مجيد واحد عبر عنه الرئيس العراقي «عارف» بقوله: «هدفنا واضح - هو مسح إسرائيل من الخارطة. وسوف نلتقي، بمشيئة الله، في تل أبيب وحيفا». (٦١)

أقصر ليلة:

شهدت ليلة ٣-٤ يونيو رئيس الولايات المتحدة يحضر اجتماعاً في نيويورك لجمع المال للحزب الديمقراطي. وكان الرئيس، الذي ينافسه روبرت كينيدي على رئاسة الحزب، مشغولاً بالسياسات المحلية وقضى معظم الأسبوع السابق في مزرعته في تكساس مجتمعاً مع كبار مستشاريه. ولكن، لم تستطع حتى مسألة مصيره السياسي الطويل التعتيم على الكارثة الدولية التي تلوح في الأفق أمامه مباشرة.

بدت فرص تلافي تلك الكارثة بعيدة جداً. فقبل يومين اعترف راسك وماكنمارا في لقاء ضم مسؤولين بريطانيين كباراً في واشنطن بأن خطة «ريغاتا» قد ماتت. فقد قالا: إن عزوف الكونغرس الانفعالي عن قبول فكرة الخطة مقترناً برفض

الدول البحرية الانضمام إليها حال دون تنفيذها في المستقبل القريب. وكان هناك سبب لإيقاف التخطيط لحالة الطوارئ خشية تسرب هذه الخطط. وحتى لو أصدرت الولايات المتحدة الإعلان، فليس هناك من وسيلة لجعله فعَّالاً وقابلاً للتنفيذ. وبموجب تقديرات الـ CIA، كان من المؤكد أن يطلق المصريون النار على أية سفينة أمريكية تمر عبر المضائق، في حين ذكرت تقارير هيئة الأركان المشتركة أن القوات الأمريكية الموجودة شرق السويس، تفتقر إلى القوة النارية اللازمة لصد أي هجوم مصري كبير. كل هذه النتائج تبدو قائمة في ضوء عبور عشرة سفن حربية سوفياتية مضيق الدردنيل إلى شرق البحر المتوسط. فكانت السفن السوفياتية تتعقب الأسطول السادس الأمريكي سراً، بانتظار الظهور كمنقذ لعبد الناصر من الغرب العدواني الخسيس. (٦٢)

ومع ذلك، وبرغم ما أسماه سوندرز (Saunders) «عرض المكاره الرهيبة» المحيطة بخطة ريغاتا، كان هناك مسؤولون كبار من أصحاب القرار يدعمون الخطة، مثل الأخوين روستو بوجه خاص. ظل وولتر ينظر إلى حرية المرور بوصفه «مبدأً مجرداً» على الولايات المتحدة أن تتمسك به، في حين كان يوجين يعتقد أن القافلة يمكن أن تفيد «شريطة أن نستعد لإظهار بعض العضلات»، وأن عبد الناصر يمكن أن يهزم بفضل «استعراض القوة الدبلوماسية، والتلميح بالفولاذ». كانوا تواقين لمتابعة الضغط على الدول البحرية لتوقيع الإعلان بفضل تخفيف حدة النص. بحيث يخلو من أي ربط بين قضية المضائق وإسرائيل. فشرعوا بدراسة هل بالإمكان شحن النفط إلى إسرائيل تحت رايات أجنبية، أم هل سيطبق الحصار على جميع المضائق أو فقط على القناة - التي يسمونها «المشروع الرئيسي».

وفي حين كان الأخوان روستو يفكران، كان الرئيس جونسون يبتعد عن مفهوم القافلة. وأخذ يركز، بدلاً من ذلك، على احتمال قيام إسرائيل منفردة بشن حرب من النوع الموصوف في «سيناريو إيفرون». فقد حبذ مسؤولون في وزارة الدفاع بقوة خيار «وضع إسرائيل في الواجهة»، كما أسموه، واثقين من أنها سوف تهزم عبد

الناصر وتنقذ أمريكا من المواجهة المباشرة مع العرب والسوفيات. بدا السيناريو، على أية حال، وشيك التطبيق. لقد علمت الـ CIA بناقلة النفط الإسرائيلية الراسية في ميناء ماساو والجاهزة للإبحار في غضون ٧٢ ساعة بحمولتها من النفط وعليها طاقم من رجال جيش الدفاع الإسرائيلي المتنكِّرين. وكان من المؤكد أن تطلق النار على السفينة عند عبورها المضائق، الأمر الذي يعطي إسرائيل ذريعة لتوجيه ضربتها. وكانت فرص حاجة إسرائيل إلى عون أمريكي في القتال الذي سينشب نتيجة لذلك، ضعيفة، حسب تقديرات وكالة المخابرات المركزية (CIA). (٦٣)

كانت مخاطر مثل هذه المغامرة واضحة، ولكن منافعها لم تكن أقل وضوحاً. إذ تلخصت تخمينات مصادر المخابرات على النحو التالي: «إذا ما ربحت إسرائيل المعركة فإن الإفريقيين والآسيويين المتعاطفين مع إسرائيل... سوف يستخلصون ببساطة أن عبد الناصر قد خدع نفسه. أما في حال قيام الغرب بعمل مشترك فإن تعاطفهم هذا، سينقلب اشمئزازاً من القوى الغربية التي أخذت تقرر مصير الآخرين ثانية»: فضلاً عن أن تدخل الاتحاد السوفياتي يكون أقل احتمالاً في حال تصرف إسرائيل وحدها، مما لو تدخلت الولايات المتحدة لصالح إسرائيل. وأشار هارولد سوندرز في مجلس الأمن القومي (NSC) إلى أن «دعم إسرائيل» يستدعي الالتزام الطويل الأجل بأمن إسرائيل، في حين أن فك الحصار بالقوة يعني قلب الإنصاف الأمريكي رأساً على عقب، والتطابق مع الصهيونية وتسليم المعتدلين العرب إلى عبد الناصر. واختتم كلامه قائلاً: «فالخيار الوحيد الآخر هو جعل الإسرائيليين يقومون بالمهمة بأنفسهم، وعلينا أن نقبل أننا فشلنا ونترك القتال ينشب».

اعتقد جونسون أن إسرائيل سوف تتحرك في غضون يومين أو ثلاثة وسوف تنجز الحرب في عشرة أيام على الأكثر. وينبغي ألا يكون هناك تواطؤ معها كالذي كان بينها وبين الحملة الأنكلو - فرنسية، في حين تقوم الولايات المتحدة بدعمها دبلوماسياً. وبدلاً من ذلك، كما قال وولت روستو، تتحرك إسرائيل «كالشريف (العمدة) في ليلة مقمرة» وحدها مستخدمة القوة» اللازمة لتحقيق احترام المنطقة.

«وكان جونسون قد نصح قبل قليل هيئته بالبدء بالتفكير في تسويةٍ بعد الحرب. ومرّة أخرى قال روستو إنه لابد من التفكير فيما إذا كان ناصر» مثل هتلر قد صمم على سحق إسرائيل كلياً وإلى الأبد... أو أنه داهية ذكي يحاول عقد صفقة» -أو إذا كان بالإمكان التوصل إلى تسوية بشأن الحدود وإعادة توطين اللاجئين.

وتوصل دين راسك إلى النتيجة ذاتها، رغم أنه أقل تفاؤلاً وأعمق إحساساً بالهزيمة. كان يظن أن إسرائيل تعلم بأن خطة ريغاتا قد فشلت، وقال: «لو أن بلداً أخرى اخترقت الحكومة الأمريكية بالطريقة التي اخترقها بها الإسرائيليون لقطعنا معهم العلاقات» وصممنا أن يتصرفوا وحدهم. واعترف إلى سفرائه في العواصم العربية قائلاً: «لن يجدي أن أطلب من إسرائيل القبول ببساطة بالأمر الواقع الحالي في المضائق؛ لأن إسرائيل سوف تحارب ونحن لا نستطيع كبحها». وفي الوقت نفسه كتب يقول: «لا نستطيع أن نتخلى عن مهمتنا، ونقول: دعهم يتقاتلون ونحاول أن نظل على الحياد». لخص وزير الخارجية تاريخ سياسة أمريكا في الشرق الأوسط - دعمها لاستقلال كل بلد فيه ولسلامته الإقليمية، وحمايتها لمصر من إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، وحمايتها للدول الموالية للغرب من مصر. ومع ذلك انكشف احتمال الحفاظ على هذا السلوك المتوازن بصورة وحشية الآن». فسيكولوجية الحرب المقدسة (الجهاد) عند العرب تماثل سيكولوجية سفر الرؤيا في إسرائيل... إذ يبدو أن كل طرف ينظر إلى الآخر بنفس القدر من العداوات الكبرى وكل منهما واثق بالنجاح... فلا بد وأن أحد الطرفين قد ارتكب خطأ فادحاً في حساباته».

رافقت مخاوف خطأ الحساب ذاك -وما ينجم عنه- جونسون إلى قاعة استقباله في نيويورك. لقد أُحبطت رغبته الصادقة في مساعدة إسرائيل بدعواها، ومساعدة حلفاء أمريكا في العالم العربي، وفي منع حرب يمكن أن تتعاظم ككرة الثلج في الأبعاد الدولية، بفضل حرب أخرى في جنوب شرق آسيا، وبفضل عدم رغبة العالم الغربي في العمل. شعر جونسون، بسبب هذه المعيقات، أنه قد بذل قصارى جهده، واستنفذ كل الخيارات الممكنة. وتلقى بالحزن والأسى، وليس بالاستغراب والدهشة

معلومة همسها بأذنه أبي فينبرغ (Abe Feinberg) أثناء العشاء: «سيدي الرئيس، لم يعد بالإمكان ضبط الأمور أكثر من ذلك. فلسوف تنشب الحرب في غضون الأربع والعشرين الساعة القادمة». (٦٤)

وفي القاهرة، تحدث ناصر في احتفال انضمام العراق إلى المعاهدة المصرية-الأردنية- وهو حدث «أحيا يوم أحد هادئ حكيم آخر» حسب تعبير راسك. وقد انبعث الحماس، في الواقع، عندما اغتنم الرئيس الفرصة ليعيد ادعاء مصر بحقها في تيران؛ ورفض أية محاولة لإعلان المضائق دولية، وأقسم أن يستخدم القوة ضد أية سفينة أو سفن تجرؤ على تحدي الحصار.

وفي الوقت نفسه، طلب الجنرال مرتجى عقد لقاء مع عامر في صبيحة اليوم التالي لبحث ما تبقى من مشكلات النقص الحرج في الإمدادات والضباط. وكان الجنرال نفسه، قد أصدر أمره الخاص إلى المقاتلين المصريين يحثهم على «إعادة احتلال الأرض المغتصبة... بقوة سلاحهم وإيمانهم الموحد» مذكراً إياهم بأن «عيون العالم كله تنظر إليكم في حربكم المجيدة ضد العدوان الإسرائيلي». ولكن مرتجى نفسه كان في إجازة في الإسماعيلية ذلك المساء، في حين كان عامر يحضر حفلاً طوال الليل في القاهرة. أما مكان ناصر فلم يكن معروفاً. وكان صدقي محمود يحضر حفل زفاف ابنته؛ وكان عليه أن يلتحق بعامر وبوفد عراقي رفيع المستوى، عند الفجر، للقيام بجولة تفقدية للجبهة. واتجه الكثيرون من هيئة الأركان إلى مطار بير التمادا (Bir al-Thamada) بانتظار هبوط طائرة المشير.

شكا اللواء عبد الحميد الدُّغيدي، رئيس القوة الجوية في سيناء، والألم يعتصره قائلاً: «لم يكن قائد جبهة سيناء في مكانه، ولم يكن قائد الجيش في مكانه ولا من هم دونهم من الضباط. إنها الحرب الأولى من نوعها يكون قادتها جميعاً بعيدين عن مواقع قياداتهم». لم يكن أي قائد بالتأكيد موجوداً عندما وصلت التقارير الأولى بعد منتصف الليل بشأن نشاط إسرائيلي مكثف حول غزة ورفح، وبشأن تجمع المدرعات الإسرائيلية في القطاع الأوسط من سيناء. (٦٥)

وبالمقابل، كان الجنرال ريكهاي (Rikhye) مقتنعاً أن الحرب ستنشب في اليوم التالي. إذ قرأ أثناء وجوده في القاهرة لإعداد الترتيبات لإجلاء قوات الطوارئ الدولية، أمر مرتجى «بوق الدعوة للقتال» فأمر بطائرته وغادر عائداً إلى غزة. رأى تحته عدواً لا يحصى من الجنود والدبابات المنتشرة «بطريقة يلجأ إليها عادة للدفاع عن آخر خندق». فكتب تقريراً إلى الأمم المتحدة في نيويورك يفيد بأن «انتشار جيش الجمهورية العربية المتحدة على نطاق واسع كهذا، بما فيه الدبابات والمدفعية، لا يمكن أن إلاَّ يكون انتشاراً هجومياً إذ لا يوجد بين هذه النقاط مواقع مناسبة يمكن الدفاع عنها... إن مضامين رسالة مرتجى (هكذا) واضحة». كان ريكهاي ينوي إرسال التقرير في الصباح، رغم احتمال عدم وجود يوثانت في مقر الأمم المتحدة ليتسلمه. إذ كان من المقرر أن تُجرى للأمين العام عملية جراحية في ذلك الوقت لسن له التهبت أثناء وجوده في مصر. (٦٦)

كان لدى الملك حسين هاجس مماثل. إذ جاءه السفير التركي بمعلومة مفادها أن الحرب ربما تنشب في اليوم التالي بضربة إسرائيلية للقواعد المصرية. وادعى الحسين فيما بعد أنه أنذر المصريين باحتمال قيام إسرائيل بهجوم في اليوم التالي. وضع قواته الجوية في أعلى درجات الاستنفار، وتحدث مع جنرالاته، وذهب إلى النوم في الساعة الواحدة صباحاً، نوماً قصيراً متقطعاً. (٦٧)

استدعي كاتريل كاتز (Katriel Katz) ثانية إلى الكرملين حيث وبخه غروميكو للمرة الثانية على «حمى الحرب» في إسرائيل. لأول مَرَّة يفقد السفير الإسرائيلي إلى موسكو أعصابه، فقال غاضباً: «في القاهرة ودمشق يدعون لتدمير بلد مجاور. ويطالب الزعماء العرب بإبادة الجنس وأنا أستدعى إلى وزارة خارجية بلد محب للسلام لأسلم إنذاراً لإسرائيل؟» أصغى غروميكو بصمت، ثم أوضح أنه ينبغي ألا تتوقع إسرائيل من العرب أن ينسوا العام ١٩٥٦-«فلديهم عواطفهم، أيضاً»- ولا يمكن للاتحاد السوفياتي أن يقبل العدوان الصهيوني ويلتزم به. وقال وزير الخارجية «إن أضمن طريقة للمجازفة بمستقبلكم هي اختياركم طريق الحرب». ثم كرر عدة مرات: «لا تدعوا عواطفكم تنتصر عليكم». (٦٨)

يقول إسحق رابين متذكراً ليلة ما قبل الحرب: «لقد لُوي جيش الدفاع الإسرائيلي كنابض جبار. إذ خضعت خططنا العملياتية خلال أسابيع الانتظار إلى مراجعات متكررة حسب تقلب الظروف في الجبهة الجنوبية. لقد راجعنا عملية الشوكة (Fork) وعملية الفأس (Hoe) -الأمر الذي بدأ وكأنه فناء مزرعة كامل من الخطط- على الورق، وعلى الخرائط، وبعصيّ نخطط فيها على الرمل. أما الآن فعلينا أن ننفذ خطتنا الأخيرة بالدبابات وأنصاف المجنزرات والشاحنات».

استدعي رابين، عندما كان في جولة في القيادة الجنوبية، إلى تل أبيب ليستمع إلى إيجاز دايان الأخير. كان الايجاز قصيراً، يتألف من سلسلة من التوجيهات. يجب تعزيز القوات المحيطة بالقدس ولكن دون إدخال دبابات إلى المدينة. ويجب ألا نهاجم الأردن، حتى ولا نستولي على قطع صغيرة من الأرض، ما لم يهاجم الأردنيون أولاً. ويجري مفعول هذا الأمر على الجبهة الشمالية: لا حرب مع سورية إذا لم يشترك السوريون في الحرب. أما فيما يتعلق بالجبهة الجنوبية فقد استعرض دايان عملية نخشون (Nachshon) الأولى (نخشون بن أميندف (Nachshen Ben Amindav) هو أول عبري يضع قدمه على أرض البحر الأحمر الذي شقه موسى بعصاه، كما جاء في الكتاب المقدس)، الهادفة إلى احتلال جبهة سيناء حتى جبل العريش خط لبني وفتح محور أبو عجيلة -رفح- العريش، وتدمير الجيش المصري في هذا القطاع». وسوف تندفع القوات الإسرائيلية بأسرع ما يمكن وبدون توقف. ومع أن شرم الشيخ لم تكن مشمولة بأهداف هذه العملية -لأن الوصول إليها يستغرق زمناً طويلاً- فإن المناطق التي يتم الاستيلاء عليها في سيناء يمكن استخدامها فيما بعد للمقايضة عليها بحرية المرور في تيران. وأخيراً تحدث دايان عن خطة فوكس (البؤرة «Focus») وتتمثل ببذل كل جهد لإبادة سلاح الجو المصري قبل أن يبدأ القتال البري. وسوف تنفذ هذه العملية في الساعة ٧,٤٥ من صبيحة يوم الإثنين حيث تدوي كلمة السر (الملاءة الحمراء) (بالعبرية Sadin Adom)، وعندها تبدأ الحرب البرية.

كان ٢٧٥٠٠٠ جندي إسرائيلي و١١٠٠ دبابة و٢٠٠ طائرة جاهزة لشن أكبر هجوم في تاريخ الشرق الأوسط. الآن فقط، فيما تبقى من ساعات قبيل الفجر، وجد دايان وقتاً للتأمل. فقد كتب فيما بعد يقول: «كنت مدركاً طوال الوقت بالعبء الثقيل الذي ألقي على كاهلي». وعلى الرغم من قناعته أن إسرائيل ستبقى في النهاية، كان مدركاً للثمن الباهظ الذي لا بد لإسرائيل أن تدفعه. قال: «لم أستطع طرد كلمات بن غوريون من ذاكرتي بسهولة، التي حذرني بها من شن هذه الحرب، ولم أستطع تجاهل موقف ديغول ونصيحة دين راسك التحذيرية، ولا تهديدات الروس، بوجه خاص.» وكانت تقديرات دايان أن رد فعل الروس سيكون بطيئاً إن حققت إسرائيل نصراً سريعاً. أما إذا أعيق التقدم أو حتى أوقف فإن خطر التدخل يتعاظم.

ساورت بن غوريون الذي أحاطه دايان بآخر المعطيات، مخاوف مماثلة، تلك الليلة. لقد كتب في يومياته: «اضطرب قلبي لما سيجري غداً... فأنا قلق جداً بشأن الخطوة التي سنتخذها... إن التسرع الحاصل هنا هو خارج نطاق فهمي. ألم يكن من الأحكم أن نتشاور (مع الزعماء الأمريكيين) أولاً؟».

وقد راود رابين كذلك هاجس الافتقار إلى التنسيق الكامل مع الأمريكيين. كتب متذكراً: «لقد جرت الحكومة وهيئة الأركان العامة دولة إسرائيل إلى حرب في أسوأ ظروف استراتيجية ممكنة». ومع ذلك، كان اتخاذ القرار أخيراً بعد مراوغات كثيرة يشكل مصدر عزاء لرئيس هيئة الأركان. ترك الإيجاز وأسرع إلى البيت لينال ما وصفه (بأول ليلة راحة في الأسبوع).

وكان هدف الكولونيل ليور الفوز بنوم قصير أخير، فغادر مكتب رئيس الوزراء بعد منتصف الليل. كانت الأسابيع الثلاثة المنصرمة منذ دخول القوات المصرية إلى سيناء في نظر مساعد إشكول «أشبه بقصة من كوكب آخر». والآن يسيطر عليه الذعر لعدم تيقنه من مقدرة إسرائيل على الصمود أمام هجوم عربي مشترك إذا ما فشلت الضربة الاستباقية. هرع ليور إلى البيت واندس في فراشه إلى جانب زوجه زُهارا (Zuhara) وضبط جرس الساعة على السادسة صباحاً. إذ سيوقظها في تلك الساعة ويطلب إليها النزول إلى الملجأ.

ظل رجل واحد، على أية حال، لم تغمض عيناه. إنه ليفي إشكول الذي ظل جالساً إلى مكتبه يؤلف حزمة من رسائل. الرسالة الأولى إلى كوسيغن، فحواها، أساساً، رجاؤه ألا تتدخل القوات السوفياتية ضد إسرائيل. فكتب له يقول: «إننا محاطون بالأعداء من كل جانب، ونخوض صراع موت أو حياة دفاعاً عن وجودنا ومنعاً لتكرار جرائم هتلر التي ارتكبت ضد الشعب اليهودي. إننا متأكدون بأن دور الاتحاد السوفياتي في التاريخ سيتقرر ثانية بفهم وضع اليهود، وبمشاعر الأخوة تجاه الشعب اليهودي في زمن محنته الكبري».

وكانت الرسالة الثانية إلى الرئيس جونسون. فقد جرى في وقت متأخر من ذلك المساء حوار مكثف حول ما إذا كان ينبغي الادعاء بأن مصر هي التي بدأت الحرب.

عارض دايان الفكرة، ولكن ألون، مدعوماً من إيبان وهيرتزوغ كانوا يعتقدون أن إسرائيل لا تخسر شيئاً إن ادعت ذلك، بل ربما تكسب شيئاً إن ألقت باللوم على عبد الناصر. وهكذا، كتب إشكول في رسالته إلى جونسون يقول: إن المدافع المصرية قد فتحت نيرانها على المستوطنات الإسرائيلية، وشوهدت تشكيلات من الطيران المصري تحلق باتجاه الحدود. ثم تابع يصف سلسلة الأحداث التي قادت إلى المواجهة الحالية: دعوة ناصر لإزالة إسرائيل، وترحيل قوات الطوارئ الدولية، وإغلاق مضائق تيران، والتحالفات بين مصر وسورية، وبين مصر والأردن ومراوغات السوفيات التي لا رحمة فيها.

وتضمنت هذه الخلاصة مفهوماً يفيد بأن مستنقع الشرق الأوسط قد نشأ من بيئة يمكن أن يشتعل فيها صراع عربي -إسرائيلي بسبب التنافس العربي- العربي والتنافس بين القوى العظمى، وبسبب السياسات الداخلية لكل ذي صلة بالموضوع. شُحن الوضع بمحفزات -هجمات الإرهابيين، صدامات حدودية، غارات انتقامية- فأنتجت تلك البيئة أزمة ستتحول إلى حرب بمجرد إشعالها.

كتب إشكول يقول: «لم ينته الصراع أمامنا». وطلب «دعماً فعالاً» من «أكبر أصدقاء» إسرائيل، خصوصاً لكبح السوفيات. أما فيما يتعلق بأهداف الحرب، ظل رئيس الوزراء متواضعاً». لا نفكر في تغيير هذا السياق جوهرياً، أو في إلغاء احتمالات نشوب حروب مماثلة في المستقبل. بل كل ما تسعى إليه إسرائيل هو وضع نهاية للتهديد المباشر، وإرساء فترة غير محدودة من الهدوء بعد ذلك. إننا لا نريد شيئاً سوى العيش بسلام في أرضنا ونتمتع بحقوقنا البحرية المشروعة». (٦٩)

obeikandl.com